زدني علماً

جان بياجيه

البنيوية

ترجمة

عارف منيمنه

و بشير أوبري

منشورات عويدات
بيروت . باريس

البنيوية

جان بياجيه

استاذ في كلية العلوم في جنيف

البنيوية

ترجمة

عارف منيمنة   بشير أوبري

منشورات عويدات

بيروت - باريس

الطبعة الرابعة ١٩٨٥

مقدمة

إذا تصفحنا الكتب الجديدة عن البنيوية التي تصدر في اللغـات الأجنبية (والفرنسية خاصة) ، نلاحظ أن أول ما يشير إليه المؤلفون هو كون ألسنة العـامة بدأت تتناقل الكلام عن البنيوية أينما كان ، وبعبارة أخرى يسودُ البنيويين ، والفلاسفة بشكل عام، جو من الانزعاج بسبب « الموضة » التي بدأت تلقاها البنيوية في الغرب ، في حين أن الوطن العربي لم يسمع حتى الآن بهذا العلم سوى في بعض الميادين الثقافية النادرة .

ونحن لا نتوخى من خلال نشر كتاب «جان بياجيه» هذا، أن يَلُمَّ القراء العرب ويستوعبوا الطريقة البنيوية بمجملها ، رغم أن المؤلف تعرض لها في شتى الميادين التي دخلتها: من علم الرياضيات حيث يسهل شرح مفهوم البنية وتحويلاتها وجُمْلتها إلى الانتروبولوجيا (أي الإناسة) حيث أثبتت البنيوية أقدامها مع « كلود ليفي شتراوس » ، مروراً بعلم الفيزياء وعلم الاحياء (البيولوجيا) وعلم اللغة وعلم النفس ؛ ولكننا نتوخى أن يستكشف القارىء البنيوية في عامتها أولاً وفي مفهومها؛ ونريده أيضاً أن يتعرف إلى المشاكل التي تتعرض لها والتي تثيرها، من مشكلة تكوين البنية إلى مشكلة تواجدها في جميع الميادين ، على ألا يكون استيعاب البنيوية بحذافيرها بما هي علم يمكن انطلاقاً منه تطوير الميادين العلمية والفنية التي تطرق لها إلا بتناول البنيوية في علم من العلوم تسربت إليه كأن نتناول البنيوية وكيفية دخولها على علم اللغة من خلال دراسة مؤلفات «فردينان دي سوسور » الذي يعتبر الرائد الأول للبنيوية ، وإما على علم الاجتماع من خلال مؤلفات « كلود ليفي شتراوس » أو « لوي ألتوسير» ، وإما على علم النفس

وعلم النفس التحليلي من خلال مؤلفات « ميشال فوكو » أو « جاك لا كان » ، الخ... غير ان جان بياجيه لم يترك أحداً من هؤلاء البنيويين إلا وتناول منطقه البنيوي محللاً مفسراً مهنئاً ناقداً ، مُظهِراً عند كل منهم نقاط الضعف ونقاط القوة ، لذلك فإن في هذا الكتاب الموجز والمُكَثَّف عن البنيوية ما يكفي لتفهم أولي للبنيوية بالإضافة إلى إغناءٍ قيّم لها .

لا بد أخيراً من الإشارة إلى الصعوبة التي تعترض ترجمة كتاب من هذا النوع إذْ أن « الالفاظ التقنية » الخاصة بالأسلوب البنيوي تفوق الكلمات العادية لذلك حاولنا قدر المستطاع توضيح الأمور ، خاصة وانها ألفاظ جديدة حتى على اللغة الفرنسية نفسها ، وذلك بتفسير لها حين يلزم الأمر ذلك .

ولا يسعنا أخيراً سوى أن نتمنى بأن ينتشر هــذا المنطق التحليلي عند الكُتّاب والمفكرين العرب وليست ترجمة هــذا الكتاب سوى مساهمة منا في السَّيْر على هذه الطريق .

بيروت في ١٩٧١/٩/٢٧ المترجمان

١ | المدخل وطرح المسائل

١ — تحديدات . — قيل غالباً إنه من الصعب إيجاد ميزة للبنيوية، ذلك انها ارتدت أشكالاً كثيرة التنوع لا تسمح بتقديم قاسم مشترك وان « البنيات » المعروفة اكتسبت معانٍ تزداد اختلافاً . ومع ذلك ، فمن المقارنة بين المعاني المتنوعة التي اتخذتها البنيوية في العلوم المعاصرة والنقاشات الجارية ، والتي ، للأسف ، كَثُر استعمالها عرفاً ، تبدو محاولة التأليف ممكنة ولكن بشرط واضح وذلك أن نفرق ما بين المشكلتين المرتبطتين فعلاً ، رغم استقلاليتهما قانوناً ، بين الفكرة المثالية الإيجابية التي تغطي مفهوم البنية في الصراعات أو في آفاق مختلف أنواع البنيات ، والنوايا النقدية التي رافقت نشوء وتطور كل واحدة منها مقابل التيارات القائمة في مختلف التعاليم .

ويجب إذا سلمنا بهذا التفريق بين المشكلتين ، أن نعترف بوجود مثال مشترك من الوضوح يصل إليه أو يحاول إيجاده جميع البنيويين ، فيما تختلف نواياهم النقدية إلى ما لا نهاية . فيرى البعض أن البنيوية ، كما في الرياضيات ، تتعارض مع تجزئة الفصول غير المتجانسة محاولين إيجاد الوحدة بواسطة تشاكلات ، والبعض الآخر يرى ، كالأجيال متتالية من اللغويين ، ان البنيوية تجاوزت الأبحاث التطورية التي تتناول ظواهر منعزلة وأخذت بطريقة المجموعات للنظام اللغوي المتزامن . أما في علم النفس فقد زادت البنيوية من معاركها ضد الميول «الذروية» atomistique التي كانت تسعى لجعل المجموعات مقتصرة على روابط بين عناصر مُسبَقة . ويتضح من النقاشات الجارية هجوم

البنيوية على التاريخية والنفسية وحتى في بعض الأحيان على جميع الأشكال العائدة للذات الانسانية بشكل عام .

ومن البديهي اذاً ، انه إذا حاولنا تحديد البنيوية بالمقابل مع مواقف أخرى وبالتشديد على التي أمكن لها محاربتها فلن نجد إلا مفارقات وتناقضات مرتبطة بجميع تقلبات العلوم والأفكار . وبالعكس ، إذا ركزنا على المميزات الإيجابية لفكرة البنية ، نجد على الأقل مظهرين مشتركيْن لجميع البنيات : من جهة مثالاً أو آمالاً من الوضوح الضمني ، ترتكز على المُسَلّمة القائلة إن البنية تكتفي بذاتها ولا تتطلب لإدراكها اللجوء إلى أي من العناصر الغريبة عن طبيعتها ، ومن جهة أخرى انجازات تقدمها رغم تنوعها ، وذلك إلى حد ما يمكن معه فعلياً ادراك بعض البنيات ، وحيث يوضح استعمالها بعضاً من ميزاتها العامة التي تبدو ضرورية .

وتبدو البنية ، بتقدير أولي ، مجموعة تحويلات تحتوي على قوانين كمجموعة (تقابل خصائص العناصر) تبقى او تغتني بلعبة التحويلات نفسها ، دون أن تتعدى حدودها او ان تستعين بعناصر خارجية . وبكلمة موجزة ، تتألف البنية من ميزات ثلاث : الجُمْلَة ، والتحويلات ، والضبط الذاتي .

وبالتقدير الثاني ، الذي قد يكون طوراً لاحقاً كما يمكن له أن يلي مباشرة اكتشاف البنية ، يجب أن يكون بإمكان هذه الأخيرة أن تفسح المجال للتقعيد الاستنباطي . على أن يُفهم فقط ان هذا التقعيد الاستنباطي هو من صنع المنظّر ، فيما البنية استقلالاً عنه ، وانه يمكن أن يُترجَم بمعادلة منطقية – رياضية أو أن يُمرّ بواسطة نموذج احيائي آلي . توجد إذاً درجات مختلفة ممكنة من التقعيد الاستنباطي تتوقف على قرارات المنظّر في حين يجب تحديد نمط وجود البنية التي يكتشفها ، في كل حقل خاص من الأبحاث .

ويُمكّننا مفهوم التحويل من أن نحدد أولاً المسألة لأننا إذا أردنا أن نشمل في فكرة البنية جميع الشكليات بمختلف معاني هذه الكلمة ، لغطت

البنيوية بالفعل كل النظريات الفلسفية ، التي ليست بالضبط تجريبية والتي تُرْجِعُ إلى أشـــكالٍ او الى جواهر ، وحتى بعض منوعات التجريبية كـ « الوضعية المنطقية » التي تستدعي اللجـــوء الى أشكالٍ نحوية ودلالية لتفسير المنطق . والحالة هذه، وطبقاً للمعنى الذي حددناه، لا يحتوي المنطق نفسه بنيات كبنيات مجموعة او تحويلات: بل بقي، وبمظاهر متعددة، خاضعاً لذريةٍ شديدة المقاومة، والبنيوية المنطقية ، منها ، ما زالت في طور نشوئها .

سوف نقتصر إذا ، في هذا المؤلَّف، على البنيويات الخاصة بمختلف العلوم ، مما يشكل بحد ذاته مجـــازفة ، وكذلك ، لكي ننتهي ، على حركات فلسفية مستوحاة ، على درجات متفاوتة ، من بنيويات منحدرة من العلوم الانسانية . ولكن يجدر بنا ان نعلق بعض الشيء على التحديد المقترح وان نوضح كيف ان مفهوماً يبدو في الظاهر "مجرداً"، كنظام تحويلٍ مغلق على نفسه، يمكن ان يولد في جميع المجالات آمالاً كبيرة .

٢ ـ الجملة La totalité . ـ بديهية هي ميزة الجملة الخاصة بالبنيويات لأن المعارضة الوحيدة التي يتفق عليها البنيويون (بمعنى النوايا النقدية التي تكلمنا عنها في البحث السابق) هي تلك المتعلقة بالبنيات والمجاميع او تلك المركبة من عناصر مستقلة عن الكل . وتتشكل البنية بالطبع من عناصر ولكن هـذه العناصر تخضع لقوانين تميز المجموعة كمجموعة ؛ وهذه القوانين المسماة تركيبية لا تقتصر على كونها روابط تراكمية ولكنها تضفي على الكل ككل خصائص المجموعة المغايرة لخصائص العناصر . الأعداد الصحيحة ، مثلاً ، لا توجد على انفراد ولم يتم اكتشافها في أي ترتيب كان لكي يُعاد جمعها في كل ، فانها لا تظهر إلا تبعاً لتسلسل الأعداد نفسه وهـــذا التسلسل يبدي خصائص بنيوية ، « فُرَق » و « أجسام » و « حلقات » الخ ، متميزة عن خصائص كل عـــدد ، الذي بما يخصُّه يمكن أن يكون مزدوجاً او مفرداً او قابلاً للقسمة بـ س > ١، الخ.

ولكن ميزة الجملة هذه تثير بالفعل عدداً من المشاكل سنحتفظ بالرئيسيتين منها نسبة الى طبيعة الأولى والى تكوُّن الأخرى او سبق تكونها .

من الخطأ الاعتقاد ان المواقف العُلوميّة تقتصر ، في جميع الميـادين ، على تفاوت : إما التعرف الى الجملات بقوانينها البنيوية، وإما تركيب ذروي انطلاقاً من عناصر . ونلاحظ، إذا كان القصد بنيات مميزة او صيغية، او إذا كان جملات اجتماعية (طبقات اجتماعية او مجموعات كاملة) الخ ... أنه تـعارض في تاريخ العلوم ، وبالنسبة الى الافتراضات الترابطية للتمييز أو الفردية لعـلم الاجتماع ، نوعان من التطورات ظهر أن الثانية منها فقط موافقة لروح البنيوية المعاصرة . تقوم الأولى على الاكتفاء بقلب المنهج الذي كان يبدو طبيعياً للعقول التي تريد ان تنتهج الطريق من السهل الى الصعب وعلى ترتيب الجملات، لا أكثر، منذ الانطلاق حسب نوع من البروز يعتبر قانوناً في الطبيعة . عندما أراد « أوغست كونت » أن يُفسّر الانسان بالانسانية وليس الانسانية بالانسان ، وعندما اعتبر دوركايم ان الكل الاجتماعي ينبثق عن اجتماع الأفراد كما تنبثق الجُزَيْئة عن اجتماع الذرات او عندما اعتقد الصيغيون (الجشطلتيون) انهم يميزون، بين الادراكات الأولية ، جملة فورية مقارنة مع مفعول المجال الكهرطيسي ، كان لهم بالطبع فضل تذكيرنا بأن الكل يختلف عن مجرد جمع لعناصر مقدمة ، ولكن باعتبار الكل سابقاً للعناصر او معاصراً لتماسها ، كانوا يسهلون على أنفسهم المهمة على حساب تفويت المسائل الأساسية لطبيعة قوانين التركيب .

وهكذا ، فمن وراء أشكال الترابـط الذروية وأشكال الجملات البارزة ، يوجد وضع ثالث وهو الوضع المتعلق بالبنيويات العملية : وانه الوضع الذي يتبنى موقفاً ترابطياً منذ البدء ، والذي حسبه ليس المهم لا العنصر ولا الكل المفروض ككل دون ان نتمكن من التحديد كيف ، بـل العلاقات بين العناصر وبتعبير آخر مناهج او سياقات التركيب (هذا اذا كنا نتكلم عن عمليـات عمدية او حقائق موضوعية) . ويكون الكل حصيلة هذه العلاقات او التراكيب التي تشكل قوانينها قوانين المجموعة .

وتبرز عندئذ مشكلة ثانية أكثر خطورة تشكل بالحقيقة المشكلة الأساسية لكل بنيوية :

هل كانت الجملات التركيبية مركبة دائماً ؟ لكن كيف وممن ؟ او هل انها كانت قبل ذلك (او ما زالت) في طور التركيب ؟ وبتعبير آخر هل للبُنيات تكوين أم انها لا تعرف سوى سَبْقَ تكوين أزلي تقريباً؟ والبنيوية مدعوة لأن تختار او تبحث عن حلول للتخطي بين أصول غير مبنية تفرضها الرابطة الذروية وعودتنا عليها التجريبية ، وجملات او أشكال بلا أصل توشك باستمرار ان تلحق بميدان الجواهر الصوري للمُثل الأفلاطونية او الأشكال الأولية . وفي هذه الحال يكثر بالطبع تشعب الآراء حول هذه النقطة حتى تصل الى الرأي الذي يعتبر ان مسألة البنية والأصل لا يمكن لها ان تطرح ، كون الأولى لازمنية بطبيعتها (وكأن هذا لم يكن اختيارياً وبالتحديد بمعنى سبق التكوين). تتوضح هذه المسألة التي يثيرها قبلاً مفهوم الجملة نفسه حالما تُتناول بجدية الميزة الثانية للبنيات ، بالمعنى المعاصر للفظه والذي هو اعتبارها مجموعة تحويلات وليس مجرد أي شكل سكوني .

٣ — التحويلات Transformations . — اذا اعتبرنا ان ميزة الجملات البنائية تتمسك بقوانين تركيبها تكون عندئذ بنّاءة Structurantes بطبيعتها .

تفسر هذه الازدواجيّة الثابتة . او بكلمة أوضح الثنائية القطبية القابلة لأن تكون دائماً وبنفس الوقت بناءة ومبنية ، تفسر بوضع أولي رواج هذا المفهوم الذي يؤمن ، كمفهوم «النظام» عند كورنو (حالة خاصة بالنسبة للبنيات الرياضية الحالية) معقوليته بممارسته هو بنفسه . وهكذا لا يمكن لنشاط بنائي إلا أن يقوم على مجموعة تحويلات . .

هذا الشرط المُحَدِّد يمكن ان يبدو مفاجئاً إذا عدنا الى المنطلقات السوسورية Saussuriens (فضلاً عن أن سوسور Saussure لم يكن يتكلم إلا عن مجموعة ليميز بين قوانين التقابل والتوازن المتزامنة) . او الى الأشكال الأولى للبنيوية النفسية لأن وحدة الصيغة (الجشتلط) (Gestalt) تميز أشكالاً إدراكية بشكل عام وسكونية . والحالة هذه يجب ألا نكتفي

بالحكم على تيار فكري من ناحية وجهته ولا حصره بمصادره، لكننا أيضاً نرى بزوغ الأفكار التحويلية منذ هذه الإنطلاقات اللغوية والنفسية . ان النظام اللغوي المتزامن ليس ثابتاً : فهو يكبت او يقبل الابتكارات ، تبعاً للحاجات المحددة، بتعارضات او علاقات النظام دون ان نكون قد شهدنا على الفور ولادة القواعد التحويلية على طريقة شومسكي ، وسرعان ما يمدد نوعاً ما ، التصور السوسوري للتوازن الحيوي عند بالي الى دراسة الأساليب التي تتناول قبلاً تحويلات وبالمعنى الضيق التغيرات الفردية . أمـا فيما يتعلق بالصيغات (Gestalts) النفسية ، وقد تكلم مخترعوها منذ البداية عن قوانين « انتظام » تحول المعطى الحواسي والتصورات الاحتمالية التي يمكن ان تقلقنا في يومنا هذا، فقد شددوا على هذا المظهر المحول للادراك .

في الواقع تـشـكـل كل البنيات المعروفة، منذ الفرق الرياضية الأكثر بساطة وحتى الفئات التي تنظم القُربى الخ... ، مجموعات من التحويلات ولكن تلك التحويلات يمكن أن تكون لازمنية (لأن ١ + ١ يساوي فوراً ٢ ، كما أن ٣ تلي ٢ دون فاصل زمني) او زمنية (لأن الاتحاد يتطلب وقتاً) فلو كانت البنيات لاتحتوي على تحويلات من هذا النوع لكانت اختلطت مع أية أشكال سكونية وفقدت أية فائدة تفسيرية تطرح عندئذ قطعاً مسألة مصدر هـذه التحويلات وبالتالي علاقتها بمفهوم التكوين بلا زيادة . ويجب أن نميز بالطبع، داخل البنية، بين العناصر التي تخضع لهذه التحويلات والقوانين التي تضبط هـذه الأخيرة : ومثل هذه القوانين تستطيع أن تـحـمـل بسهولة على أنها ثابتة حتى لنجد داخل بنيويات ليست بالضبط شكلية (بمعنى علوم تقعيد الاستنباط) عقولاً ممتازة وقليلة الميل الى تكوين علم النفس كي تقفز دفعـة واحدة من رسوخ القواعد في التحويلات الى فطريتها : تلك هي الحالة مثلاً بالنسبة لـ « نوام شومسكي » الذي تبدو له القواعد المولدة ملتمسة الحاجة للقوانين النحوية الفطرية، كأن الرسوخ لا يمكن أن يفسر بسياقات جبرية التوازن ، وكأن الرجوع الى علم الأحياء الذي

تقدمه فرضية فكرية لا يثير مشاكل في التكوين بالغة التعقيد كمشاكل تكوين علم النفس (La psychogenèse) .

أما الأمل الضمني لجميع البنيويات المناقضة للتاريخية وللوراثية فهو إرساء البنيات نهائياً على أسس لازمنية كما هو الحال بالنسبة للأنظمة المنطقية ـ الرياضية (ضمن هذا الاعتبار ترافق فطرية شومسكي اقتصار نحويتها على بنية شكلية آحادية الفكرة) . واذا سُلِّمَ بنظرية عامة للبنيات، عندئذ لا يمكن لها أن تطابق حاجات علمية انضباطية مشتركة فلن يعود ممكناً إلا أن نتساءل، بوجود مجموعة تحويلات لازمنية كفئة او كشبكة « مجموع الأجزاء » ، عن كيفية الحصول عليها ، سوى بالنفي الى مواطن السمو الإلهية . ويمكن عندئذ أن ننتهج في عملنا قرارات كأن نضع أوليات ، ولكن ، من النظرة العلمية، يشكل هذا طريقة أنيقة للسرقة تقتضي باستغلال العمل السابق لطبقة كادحة من البنائين عوض عن أن نبني بأنفسنا عدة الانطلاق . أمـا الطريقة الأخرى التي هي من الناحية العلمية أقل عرضاً للاستلابات القادرة على المعرفة ، فهي طريقة سلالية البنيات التي يفرضها التمييز الذي قدمه غوديل : بين القوة او الضعف الكبيرين تقريباً (راجع الفصل الثاني) ؛ وفي هذه الحالة لا يمكن تجنب مسألة أساسية ، هي غير مسألة التاريخ ولا مسألة تكوين علم النفس لكن على الأقل مسألة بناء البنيات والعلاقات غير الانفصالية بين البنيوية والبنائية. وسيكون هذا موضوعاً من مواضيعنا .

٤ — الضبط الذاتي L'autoréglage . ـ ان الميزة الأساسية الثالثة للبنيات هي انها تستطيع أن تضبط نفسها . هذا الضبط الذاتي ، يؤدي الى الحفـاظ عليها ، والى نوع من الانغلاق .

وإذا بدأنا بهاتين الحاصلتين ، فانهما تعنيان ، ان التحويلات الملازمة لبنية معنية لا تؤدي الى خارج حدودها ولكنها لا تولد إلا عناصر تنتمي دائماً الى البنية وتحـافظ على قوانينها . وهكذا ، حين نجمع او نطرح مطلق عددين

صحيحين، نحصل دائماً على أعداد صحيحة ، تثبت قوانين الفريق الجمعي لهذه الأعداد . وهكذا ، وبهذا المعنى ، تنطوي البنية على نفسها ولكن هذا لا يعني أبداً ان البنية المعنية لا تستطيع الدخول على شكل بنية فرعية ضمن بنية أخرى أوسع مجالاً .

يبقى أن التعديل في الحدود العامة ، لا يلغي أبداً الحدود السابقة ، وبهذا لا يوجد إلحاق ، وإنما اتحاد، ولا تتأثر قواعد البنية الفرعية بل تحافظ على نفسها بحيث يشكل التغيير الذي يكون قد جرى اغناءً للبنية .

وتفترض ميزات المحافظة هذه ، بالإضافة الى سكونية الحدود ، ضبطاً ذاتياً للبنيات رغم البناء اللامتناهي لعناصر جديدة . وهذه الخاصة الضرورية ، تعزز بدون أدنى شك أهمية المفهوم والآمال التي تثيرها في جميع الميادين . لأننا حين نتوصل الى حصر حقل معين من المعارف ضمن بنية مضبوطة ذاتياً ، يخيل الينا أننا نمتلك المحرك الخاص للنظام . فضلاً عن أن الضبط الذاتي ، يتم حسب طرق او سياقات مختلفة ، الشيء الذي يُدخِل اعتباراً ما الى سلسلة متزايدة من التعقيد ويعيد بالتالي الى مسائل البناء ومنها بالنهاية الى مسائل التكون .

في قمة السُلم (حتى هذه اللفظة قابلة لأن تحمل حولها التضاربات، فيتكلم البعض عن قاعدة الهرم فيما نرى نحن هذه القاعدة قمة) ، ينهج الضبط الذاتي عمليات جد مضبوطة وليست هذه الضوابط سوى القوانين الجلية للبنية المعنية . سيقال عندئذ ان الكلام عن الضبط الذاتي تلاعب بالألفاظ ، إذ يدور التفكير إما حول قوانين البنية ، ومن البديهي أن تضبطها ، وإما حول العالِمْ الرياضي او المنطقي الذي يعمل ، ومن البديهي ، مجدداً ، أن يضبط أعماله اذا كان في حالة طبيعية .

فاذا ضبطت عملياته جيداً ، واذا كانت قوانين البنية قوانين تحويلات، وبالتالي ذات طابع عملي ، يبقى أن نتساءل عن ماهية العملية في المنظور البنيوي .

والحالة انها ، من وجهة نظر الاحيائية الآلية Cybernétique (أي علم الضبط) انتظام كامل : وهذا يعني انها لا تنحصر بتصحيح الأخطـــاء على ضوء نتيجة الأفعال ، بل تكوّن منها تصحيحاً مسبقاً بفضل أساليب داخلية للمراقبـــة كالمعكوسية (مثلاً : + س — س = صفر) وهي مصدر مبدأ التناقض (اذا + س — س لا يساوي صفراً فان س لا تساوي س) . ويوجد من جهة أخرى الفئة الضخمة للبنيات المنطقية ، دون حصر المعنى ، او الرياضية أي التي تجري تحويلاتها في الزمان : اللغوية ، الاجتماعية ، النفسية ... الخ ويبدو اذاً بديهياً ان ضبطها الفعلي يفترض في هذه الحالة انتظامات بالمعنى الإحيائي الآلي للفظة ، مرتكزة ليس على عمليات بحتة ، أي معكوسية كلية (بالتعاكس او بالتبادليات) ولكن على لعبة استباقات ومفاعيل رجعية Feedbacks ، يغطي مجـــال تطبيقها الحياة بكاملها (منـــذ الانتظامات الفيزيولوجية) والـ Homeostasie او الـ : « pool Génétique du genome » . (راجع الفقرة ١٠) .

وأخيراً تبدو التنظيمات بالمعنى الاعتيادي للكلمة كأنها تنتهج تماماً اجراءات بنائية أكثر سهولة ، ومن الصعب رفض حق دخولها الى ميدان البنيات بشكل عام. انها الأوليات الإيقاعية التي نجدها على كل المستويات الحياتية والانسانية[1]، في حين ان هذا الإيقاع يؤمن انتظامه الذاتي بالوسائل الأكثر بساطة المبنية على التناظرات والإعادات .

إيقاعات ، تنظيمات ، عمليات ، تلك هي السياقات الثلاثة الأساسية للضبط الذاتي او الحفاظ الذاتي للبنيات . ولكل واحد الخيار في ان يرى فقرات البناء « الحقيقي » لهذه البنيات او ان يقلب التركيب واضعاً في القاعدة الأواليات العملية في شكل لازمني وشبه أفلاطوني ومستخلصاً بعد ذلك كل الباقي .

---

(١) وقد تأسس منذ بضع سنوات تعلم كامل مختص مع تقنياته الرياضية التجريبية ومكرّس لعلم الإيقاعات والدوريات الإحيائية (ايقاعات دورية تدوم ٢٤ ساعة وعامة للغاية) .

ونجد أخيراً ان التراكيب التي تربط بين عناصر الفريق هي تراكيب ترتيبية (هنا [س + ش] + ص = س + [ش + ص]) .

وباعتبارها أساساً في علم الجبر، تكشفت بنية الفريق عن عمومية وخصوبة عجيبتين ، حتى بتنا نجدها في أغلب الميادين الرياضية تقريباً وفي المنطق؛ واكتسبت في الفيزياء أهمية أساسية وأصبح من المحتمل أن نجدها يوماً في البيولوجيا . من المهم اذاً أن نحاول فهم أسباب هذا النجاح لأنه اذا قُدر واعتبرنا الفريق بعيماً للبنيات وفي ميادين يجب فيها إقامة البرهان على كل المقدمات، يعطينا الفريق، عندما يرتدي أشكالاً واضحة ، أقوى بواعث الأمل في مستقبل البنيوية .

أولى هذه البواعث هي الشكل المنطقي – الرياضي للتجريد الذي ينتهجه الفريق والذي يفسر عمومية استعمالاته . عندما تُكتَشف إحدى خواص الأشياء بالتجريد انطلاقاً من الأشياء نفسها فإنها تعلمنا بالطبع عن هذه الأشياء، ولكن كلما كانت الخاصة عمومية كلما فَقُرت وقلّ استعمالها لأنها تطبق على كل شيء. وعلى العكس فإن ما يخص التجريد العاكس Abstraction réfléchissante، الذي يميز الفكر المنطقي الرياضي ، هو كونه مستقى ليس من الأشياء نفسها ، ولكن من الأفعال التي يمكن ممارستها عليها ، وبالأخص من التنسيقات الأكثر عمومية لهذه الأفعال ، كأن نضم ونرتب ونطابق الخ ...

وعلى هذا الأساس ، فإن هذه التنسيقات العمومية ، هي التي نعود ونجدها بالضبط في الفريق وقبل كل شيء :

أ – امكانية الرجوع الى نقطة الانطلاق (العملية العكسية للفريق) .

ب – امكانية الوصول الى هدف واحد بطرق مختلفة ومن دون أن تتغير نقطة الوصول من جراء الطريقة المتبعة (ترتيبية الفريق) . أما بالنسبة لطبيعة التراكيب (الوصل réunion) فيمكن أن تكون مستقلة عن الترتيب (فريق تبادلي) او تتعلق بترتيب ضروري .

وعلى هذا ، تغدو بنية الفريق ، أداة تماسك تحتوي على منطقها الخاص بضبطها الداخلي او انتظامها الذاتي . وبالفعل يستخدم الفريق بممارسته نفسها ثلاثة من المبادىء الأساسية للعقلانية :

– مبدأ عدم التناقض الذي يتجسد في معكوسية التحويلات .

– مبدأ التطابق الذي يُؤَمّن نفسه باستمرارية العنصر الحايد، وأخيراً هذا المبدأ الذي قلما يركز عليه ولكن الذي يبقى مع ذلك أساسياً ، هذا المبدأ هو ان نقطة الوصول تبقى مستقلة عن الطريقة المتبعة .

مثالاً على ذلك ، تشكل الانتقالات في الفراغ فريقاً (لأن انتقالين متتاليين يعطيان انتقالاً أيضاً، ولأن أي انتقال يمكن أن يلغى بالانتقال المعاكس او ما يسمى «بالعودة»...الخ). وفي هذه الحالة فإن ترتيبية فريق الانتقالات التي تناسب قيادة « الدورات » تشكل ضمن هذا الاعتبار نقطة أساسية لتماسك الفراغ لأن نقاط الوصول اذا تغيرت دائماً بفعل الطرق المتبعة فلن يعود هنالك فراغ وإنما تدفق دائم يمكن مقارنته بنهر هيراقليطس .

ثم ان الفريق أداة أساسية للتحويلات ولكن لتحويلات عقلانية لا تغير الكل دفعة واحدة . لكن تبقى كل واحدة منها متضامنة مع عنصر لا يتغير . وهكذا عندما ينتقل جسم في الفراغ التقليدي تبقى مقاييسه على حالها . كما ان تجزئة الكل الى كسور تبقي المجموع الاجمالي لهذه الكسور على ما هو عليه. الخ. وتكفي بنية الفريق وحدها لكشف الميزة المصطنعة للنقيضة التي اعتمدعليها ميرسون

لإرساء علوميته التي تقول بأن كل تبديل كان لاعقلانياً وان الهوية وحدها تميز العقل . يشكل الفريق، تنسيقاً لا يتفكك للتحويل والحفاظ ، أداة لا تضاهى للبنائية ، ليس فقط لأنه نظام تحويلات وإنما بالأخص لأنه يمكن معايرة هذه الأخيرة بواسطة الفصـــل بين الفريق والفريق الفرعي وبالطرق الممكنة للمرور من أحدها الى الفريق نفسه . وهكذا لا يدع فريق الانتقالات قياسات الصورة المنقولة فقط ، ثابتة وإنما أيضاً الزوايا والمتوازيات والخطوط . الخ.

يمكننا عندئذ أن نغير القياسات ونحفظ كل الباقي فنحصل على فريق أعم، ويصبح عندها فريق الانتقالات فريقاً فرعياً للتشابهات، ويملك امكانية تكبير الصورة دون أن يغير شكلها .

ويمكننا بعد ذلك أن نغير الزوايا مع الحفاظ على المتوازيات والخطوط ... الخ. نحصل هنا أيضاً على فريق أكثر عمومية يشكل الفريق الفرعي للتشابه فريقاً فرعياً منه، وهو ما يسمى بالفريق الفرعي للهندسة المتقاربة التي نستعملها مثلاً حين نحول معيناً الى معين آخر . ونكمل عملنا هذا مغيرين الخطوط فنتوصل بذلك الى الفريق الاسقاطي (رنايات Perspectives) تشكل الفرقات الفرعية السابقة متداخلة فيه . ويمكننا أخيراً ألا نبقي حتى الخطوط نفسها ونتفحص أشكالاً مطاطة نحتفظ منهـــا فقط بالمقابلات النظيرية والمزدوجة التتـــابع bicontinues بين نقاطها. وعندئذ نحصل على الفريق الأكثر شمولاً والذي يسمى فريق الـ homéomorphie المختص بالبيولوجيا . هكذا وعندما نستعمل بنية الفريق لا تعود تشكل الهندسات التي كانت تبدو وكأنها تمثل النموذج للأوصاف السكونية والتي كانت محض صورية ومجزأة الى فصول منفصلة، إلا بناء واسعاً تسمح تحويلاته ،نظراً لتداخل الفريق الفرعي ،بالمرور من بنية فرعية الى بنية فرعية أخرى (هذا دون أن نتكلم عن علم العروض العام الذي يمكن أن نسنده الى الطوبولوجيا لنستخلص منه علوم أوكليريه الخـــاصة غير اقليدية او الاقليدية euclidiennes والعودة من ثم الى فريق التنقلات) . هذا هو التغيير الجذري من

الهندسة الصورية إلى نظـــام كامل من التحويلات الذي تمكن من عرضه كلاين F. Klein في كتابه الرائع « برنامج ارلنغن » ، وهذا يشكل مثالاً أولياً عما يمكن أن نسميه ، والفضل لبنية الفريق ، انتصاراً إيجابياً للبنيوية .

٦ – البنيات الأم . - ولكن ذلك لا يمكن أن يُعَدُّ إلا نصراً جزئياً لأن الميزة الأساسية لما أسميناه بالمدرسة البنيوية في الرياضيات أي مدرسة بورباكي، هي انها كانت تسعى لالحـــاق الرياضيات بفكرة البنية . كانت الرياضيات التقليدية مكونة من مجموعة من الفصول غير المتجانسة (الجبر ـ نظرية الأعداد ـ التحليل ـ الهندسة ـ حساب الاحتمالات ... الخ) التي يتعلق كل واحد منها بميدان محدود وبأشياء او كائنات محددة بواسطة خواصها الجوهرية . وبما أن بنية الفريق، استطاعت أن تطبق على العناصر الأكثر شمولاً، وليس على العمليات الجبرية فقط ، وجدت مجموعة البورباكي[1] نفسها مضطرة الى تعميم بحث البنية حسب مبدأ مطابق في التجريد .

فاذا سمينا « عناصر » الأشياء المجردة أصـــلا كالأعداد او الانتقالات او الاسقاطات ... الخ (ونرى هنا انه يوجد نتائج عمليات وحتى عمليات متكاملة بنفسها) لا يبقى الفريق مميزاً بطبيعة عناصره بـــل يتعداها بتجريد جديد ذي درجة أعلى، وهذا التجريد يقوم على أن نستخلص بعض التحويلات المشتركة والتي نستطيع أن نخضع لها أية نوعية من العناصر، وبالذات ، كان أسلوب مجموعة بورباكي يقوم على استخلاص البنيات الأكثر عمومية بواسطة طريقـة تضعها في تشاكلات Isomorphismes ، وعلى اخضاع العناصر الرياضية المختلفة الأنواع لها، آخذين بعين الاعتبار عدم خصوصية الميدان الذي منه نستقي الأعداد، وصارفين النظر كلياً عن الطبيعة الخاصة لهذه الاعداد. وترتكز نقطة الانطلاق اذاً لمشروع كهذا على نوع من الاستقراء ذلك اننا لم نستنتج أولياً العدد او شكل البنيات

---

(١) مجموعة البورباكي: اسم مستعار لمجموعة رياضيين فرنسيين قاموا بأعمال كثيرة مشتركة.

الأساسية التي نبحث عنها . هذه الطريقة أدت إلى اكتشاف « البنيات الأم » الثلاث التي تشكل المصادر لكل البنيات الأخرى والمتعذرة التخفيض حكماً فيما بينها (يأتي العدد ثلاثة نتيجة تحليل تراجعي وليس نتيجة بناء أولي) .

يوجد أولاً « البنيات الجبرية » وبعيمها الفريق ، تشمل جميع المشتقات المستخلصة منه .

تتميز «البنيات الجبرية» بوجود عمليات مباشرة وعكسية بمعنى المعكوسية بالنفي (اذا كانت ع العملية وعكسها ع−١ عندئذ : ع−١ × ع = صفر) . ومن ثم يمكننا أن نفرق « بنيات التنظيم » التي تخص العلاقات والتي بعيمها هو «الشبكة» أو التشابك، أي بنية مقارنة عموميتها بعمومية الفريق، والتي درسها ديدكايند بيركوف سابقاً . يجمع التشابك عناصره بواسطة علاقات هي « يلي » و « يسبق »، ويحتوي على عنصرين الحد الأعلى (أقرب العناصر المتتابعة) والحد الأدنى (أبعد العناصر السابقة) تطبق الشبكة كالفريق على عدد لا بأس به من الحالات (مثلاً على مجموعة الأجزاء التي تنتمي الى مجموعة معينة)[١] او ما يسمى بـ Simplexe او على فريق وفريق فرعي . أما الشكل العام لمعكوسية الشبكة فلا يعود العكس بل المقابلة بالمثل ، مثلاً : س × ش تسبق س + ش تتحول الى س + ش تلي س × ش حين نستبدل الشارات (×) و (+) والعلاقات « تلي » و « تسبق » . وأخيراً يمكننا أن نقول أن طبيعة البنيات الأم الثلاث هي طبيعة طوبولوجية ترتكز على مفاهيم الجوار والاستمرار والحد .

بعدما حددنا وميزنا هذه البنيات الأساسية نحصل على جميع البنيات الأخرى ضمن سياقين اثنين : إما بواسطة المزج ، وذلك عندما تخضع مجموعة عناصر الى بنيتين في نفس الوقت (مثلاً الطوبولوجيا الجبرية) او بالتمييز أي فـــارضين

(١) اذا اعتبرنا المجموعة م مؤلفة من س جزء نحصل على مجموعة هذه الاجزاء ق اذا أخذنا الاجزاء واحداً واحداً ، اثنان اثنان ... الخ .

مسلمات محددة لتعريف البنيات الفرعية . (مثلاً الفريق الهندسي المشتق على أنه فريق فرعي والمتداخل بالتوالي (مثالاً على ذلك الفريقات الهندسية المشتقة على انهـــا تحت فريقات والمتداخلة بالتوالي من فريق الـ Homéomorphic الطوبولوجي) مدخلين في ذلك المحافظة على الخطوط ثم المتوازيات ثم الزوايا (راجع ٥) .

يمكننا أن نمر أيضاً من بنيات أقوى الى بنيات أضعف مثالاً على ذلك شبه الفريق الترتيبي والذي لا يحتوي عنصراً محايداً ولا عنصراً عكسياً (الأعداد الطبيعية أكبر من صفر) .

ولكي ندمج جميع هذه المظاهر بعضها ببعض ولنساعد على توضيح ماهية المعنى العام للبنيات يبدو ضرورياً أن نتساءل هـــل ان أسس هذه « الهندسة المعمارية الرياضية » (الكلمة لبورباكي) تقدم ميزة « طبيعية »، أم أنها تبقى في حيز الأوليات الشكلية . ونعني هنا بكلمة طبيعية ما نعنيه حين نستعمل كلمة أعداد طبيعية لكي نشير الى الأعداد الصحيحة الموجبة والتي اكْتُشِفَتْ قبل أن تُسْتَعْمَل في الرياضيات والتي أُلِفَت بواسطة عمليات مستقاة من التجربة اليومية كصلة المقابلة النظيرية المستعملة عند المجتمعات البدائية في التبادل: واحد مقابل واحد، او في لعب الأطفال وذلك آلاف السنين قبل أن يستعملها كانطور لتأليف العددالترتيبي الأول عِبْر النهائي Premier Cardinal transfini . ومن المدهش الملاحظة ان أولى العمليات التي يستعملها الطفل فيطور نموه، والتي تشتق مباشرة من تنسيقات عامة لأعماله المرتكزة على الأشياء، يمكن أن تقسم إلى ثلاثة فئات كبيرة . الأولى حسبا تنتهج معكوسيتها : بالعكس كا في البنيـات الجبرية (بشكل خاص في حاله بنيات التصنيف وبنيات الأعداد) او بالتبادل كا في بنيات التنظم (فيالحالة الخاصة Sériations والصلات الـ Sériales) والثانية ان المجموعات بدل ان ترتكز على المشابهات او المفارقات تنتهج قوانين التقارب والتتابع والحدود، الشيء الذي يشكل بنيات طوبولوجية جزئية (المعتبرة من

وجهة نظر علم النفس الأصلي سابقة للبنيات المدّية والإسقاطية بعكس التتابع التاريخي للهندسات وطبقاً لتنظيم التبعية النظرية أ) .

يبدو اذاً ان هذه الأحداث تشير الى أن البنيات الأم، التي وضعتها بجموعة بورباكي، توافق، وبشكل بديهي وطبيعي، ان لم نقل ركيك، وبشكل بعيد عن العمومية وعن التقعيد الممكن أن ترتديه على المستوى النظري تنسيقات ضرورية، لسير مطلق ذكاء منذ الأطوار الأولى لنشوئه .

وبالفعل ليس من الصعب أن نبين ان العمليات الأولى التي تكلمنا عنها تنتهج فعلاً تنسيقات حسية محركة هي نفسها وحيث تحتوي الأفعـــال التي تستعين بأدوات عند الطفل كما عند القرد على بنيات بشكل أكيد (راجع الفصل ٤) .

ولكن قبل أن نستخلص ما تعنيه هذه الملاحظات من الوجهـــة المنطقية، لنذكر ان البنيوية عند بجموعة البورباكي هي في طور التحول تحت تأثير تيارات من المفيد التكلم عنه لأنه يبين بشكل جيد أسلوب اكتشاف ان لم نقل تكوُّن البنيات الجديدة . نعني هنا اختراع الفئات (ماك لين وايلنبرغ) أي اختراع طبقة عناصر تحتوي أيضاً على الوظائف التي تحملها هذه العناصر والموافقة اذاً لـ Morphisme .

وبالفعل فان المفهوم الحالي للتابع هو صلة تطبيق بجموعة على بجموعة أخرى او على المجموعة نفسها وتؤدي هكذا الى بنـــاء جميع أنواع التشكلات Isomorphisme او Morphisme وهذا يعني انه، اذا ركزنا على التوابع، لاتعود الفئات تتمحور على البنيات الأم ولكن على الطريقة العلاقيـة التي نتبعها والتي ساعدت على استخلاص هذه الفئات. من هنا نستطيع أن نعتبر البنية الجديدة مستخلصة ليس من « الموجودات êtres » التي توصلت اليهـــا العمليات السابقة بل من العمليات نفسها والمعتبرة كسياقات مكوِّنة . وهكذا تبدو مبررة نظرة بابرت الى الفرق على انها بجهود لالتقاط عمليـات الرياضي أكثر مما تكون بجهوداً لالتقاط الرياضيات .

هذا مثل آخر عن « التجريد المنعكس » الذي تكلمنا عنـــه والذي لا يستخلص مادته من الاشياء بل من العمليات الممارسة عليها (حتى عندما كانت الأشياء السابقة مجرد نتيجة لهذا التجريد)؟ وتبدو هذه الأحداث ثمينة حقاً فيما يتعلق بطبيعة وأسلوب بناء البنيات .

٧ – البنيات المنطقية . – يبدو المنطق للوهلة الأولى وكأنه يشكل ميداناً متميزاً للبنيات لأنه يهتم بأشكال المعرفة وليس بمحتوياتها . وأكثر من ذلـــك عندما نثير مسألة (غير منظورة جيداً عند المنطقيين) المنطق الطبيعي (بالمعنى الذي أوضحناه في الفقرة ٦) للأعداد الطبيعية، نلاحظ فوراً ان المحتويات التي تستعملها الأشكال المنطقية لا تزال تحتوي هي أيضاً على أشكال موجهة باتجاه الأشكال المنطقة . وأشكال المحتويات هذه تشتمل على محتويات أقـل اعداداً ولكنها تمتلك هي الأخرى أشكالاً، وهكذا دواليك يشكل كل عنصر احتواءً للعنصر الأعلى منه وشكلاً للعنصر الأدنى، ولكن اذا كان تداخـــل الأشكال ونسبية الأشكال والمحتويات مفيداً جداً لنظرية البنيوية فانه لا يهم المنطق إلا بشكل غير مباشر فيما يتعلق بمسألة الحدود ومسألة التقعيد (راجع فقرة ٨) .

ويأخذ المنطق الرمزي او الرياضي (الأكثر شهرة اليوم) مكاناً غير محدد في هذه الخطوة التصاعدية ولكن مع النية الصارمة بأن نجعل منه ابتداءً مطلقاً، وحكمة هذه النية هي انها ممكنة التحقيق بفضل طريقـــة الأولويات. وبالفعل، يكفي ان نختار كنقطة انطلاق، عدداً من المفاهيم المعتبرة غير قـــابلة للتحديد بشكل تساهم به في تحديد المفاهيم الأخرى، وافتراضات معتبرة غير قابلة للبرهان (نسبة للنظام المختار لأن اختيارها عشوائي) ستساهم هي أيضاً في عملية البرهان .

ولكن يجب على هذه المفاهيم الأولية ان تكون كافية متطابقة ومحصورة بقدر المستطاع وبكلمة أخرى ألا تكون مسهبة . ويكفي بعدئذ ان نعطي أنفسنا قواعد البناء، على شكل منهج عمـــلي، ويغدو التقعيد عندئذ نظاماً

يكتفي بذاته ومن دون ان يستعين بحدس خارجي يُحَمِّل نقطـــة انطلاقه معنى مطلقاً . تبقى بالطبع مسألة الحدود العليـــا للتعقيد والمسألة العلومية لمعرفة ما تغطيه المعطيات غير المحددة وغير المبرهنة ولكن من وجهـــة النظر الشكلية التي ينطلق منها المنطقي . نجد هنا المثال الوحيد بـــلا شك لاستقلال جذري بمعنى ضبط داخلي محض أي على الانتظام الذاتي التام .

يمكننا اذاً ان ندعم من وجهة نظر أوسع، الفكرة القائلة ان كل نظام منطقي (عدد هذه الأنظمة لامتناهي) يشكل بنيه لأنه يحتوي على ثلاث ميزات : ميزة الجملة ، ميزة التحويلات وميزة الضبط الذاتي .

ولكننا نعني بهذا من جهة أخرى، البنيات الخاصة بها، وسواء أذكرناه أم لم نذكره فإن الهدف الباطني للبنيوية هو الوصول الى البنيات الطبيعية . هذا التصور السيء السمعة والغامض بعض الشيء يغطي امـــا فكرة التجذير العميق في الطبيعة الانسانية (مع خشية الرجوع الى الأولية) واما بالعكس فكرة وجود مطلق مستقل بمعنى ما عن الطبيعة الانسانية التي يجب ان تتكيف فقط (يخشى من هذا المعنى الثاني الرجوع الى الجواهر السامية) ، ونعني من جهة أخرى (وهذا أشد خطورة) ان أي نظام في المنطق يشكل جملة منغلقة فـــيما يتعلق بمجموعة النظريات التي يبرهنها، ولكن ذلك لا يشكل إلا جملة نسبية لأن النظام ينفتح من الأعلى فيما يتعلق بالنظريات التي يبرهنها (بالأخص النظريات غير المقررة من جراء حدود التعقيد) وينفتح من الأسفل لأن مفاهيم وفرضيات الانطلاق تغطي عالماً من العناصر الضمنية .

لهذه المسألة الأخيرة بشكل خاص اهتمت البنيوية التي يمكن تسميتها بالمنطقية صاحبة النية الواضحة بالبحث عما يمكن ان يوجد « تحت » عمليات الانطلاق المقننة بالأوليات والذي وجدناه، يشكل قطعـــاً مجموعة من البنيات الصحيحة والمقارنة ليس فقط بالبنيات الكبيرة التي يستعملها الرياضيون والتي تفرض حدسياً

بشكل مستقل عن تقعيدها بل تتطابق مع بعض هذه البنيات وتدخل عندئذ فيما نسميه اليوم الجبر العام والذي يشكل نظرية للبنيات .

من المثير للدهشة بشكل خاص، هو أن منطق «بول» أحد أكبر مؤسسي المنطق الرمزي في القرن التاسع عشر يشكل جبراً يدعى جبر بول . هذا الجبر الذي يغطي بشكله التقليدي منطق الطبقات ومنطق الافتراضات، يتناسب من ناحية أخرى مع علم الحساب (Modueos) أي علم يحتوي على قيمتين اثنتين فقط صفر وواحد . والحالة هذه يمكننا ان نستخلص من هذا الجبر بنية « شبكية » (راجع فقرة ٦) حين نضيف الى الخواص المشتركة لجميع الشبكات الميزات الآتية : ميزة الاستغراق distributivité ، وميزة احتواء عنصر أقصى وعنصر أدنى ، وخاصة الميزة التكاملية (يحتوي بذلك كل عنصر على عكسه او على نقيضه) . عندما يمكننا ان نتكلم عن «شبكة بول» ، تسمح لنا من ناحية أخرى كل واحدة من العمليتين «البوليتين» ،عملية الفصل الكلي «أو (م) أو (ش) وليس الاثنين معاً »، وعملية التعادل بتشكيل كل فريق على حدة ، وكل واحد من هذه الفرق يمكن ان يتحول الى حلقة تبادلية [1] ، نجد بذلك في المنطق البنيتين الرئيسيتين المستعملتين غالباً في الرياضيات، وفوق ذلك يمكننا ان نستخلص فريقاً أكثر عموماً كحالة خاصة فريق الرباعية عند كلين groupe de quaternalité de Klein .

لنأخذ عملية كعملية التوافق س=ش: اذا عكسنا هذه العملية (ن) نحصل على س × ش̄ (مما ينقض التوافق) اذا قلبنا طرفيّ التوافق او بشكل أبسط اذا حافظنا على شكلها ، ولكن مع الافتراضات المنقوضة س̄=ش̄ ، نحصل على البديل (ب) مما يؤدي إلى ش=س . لنأخذ المعادله س=ش هذه المعادلة يمكن ان تكتب :

(١) راجع ج - ب - غرايز المنطق ص ٢٧٧ في كتاب المنطق والمعرفة العلمية « بياجيه » Encyclopédie de la pleıade .

س × ش ∨ س̄ × ش ∨ س̄ × ش) اذا استبدلنا الآن في هذه المعادلة الجديدة ∨ و (×) نحصل على الارتبـــاط المتبادل (أ) المتعلق به للمعادلة س⊃ش أي نحصل على س̄ × ش . وأخيراً اذا حافظنا على المعادلة س≡ش بدون تغيير نحصل على التحويل المطابق ت والحالة هذه نحصل بطريقة تبادلية على المعـــادلة . ن × ب = أ أو ن × أ = ب أو أ × ب = ن أو ن × ب × أ = ت .

نحصل هنا على فريق يحتوي أربعة تحويلات تماماً بحيث تمنح عمليات منطق الافتراضات المزدوجة bivalente (سواء أكانت هذه الافتراضات مزدوجة أو مثلثة ... الخ) من الأمثلة بمقدار مـــا يمكننا أن نشكل من الرباعيات (quaternes) بواسطة العناصر الموجودة داخل « مجموعة أجزاء » الفريق ذي الأربع تحويلات[1] نجد بالنسبة الى بعض هذه الرباعيات معادلات خـــاصة :

---

(١) هذا الفريق أ ، ن ، ر ، ت الذي تكلمنا عنه في عام ١٩٤٩ في (كتاب المنطق) استتبع تعليقاً من مارك باربوت (الأزمنة الحديثة تشرين ١٩٦٩ عدد ٢٤٦ مسائل البليوية) مما يؤدي الى سوء تفاهم . اذا دمجنا مفهوم العمليات أ ن ب ت وحولناه الى شكل أبسط نجد ان في المعادلة (A B) م × ق حيث يمكننا ان نبسط التحويلات الثلاثة الباقية :

١ – تغيير م changer A .
٢ – تغيير ق changer B .
٣ – تغيير م و ق بنفس الوقت .

بهذا لن نكون قد حققنا سوى تبادلات بينما يفترض الفريق أ ، ن ، ب ، ت بالعكس ليس الحالات الأربعة في أية لائحة كعناصر :

م × ق – م × ق̄ ، م̄ × ق و م̄ × ق̄ .

$A\ B \quad A\bar{B} \quad \bar{A}\ B$ et $\bar{A}\ \bar{B}$

واعـــا الستة عشر تنسيقاً الموجودة في مجموعة تجزيئاته « او الـ٢٥٦ تنسيقاً للافتراضات الثلاثة » لهذا لا يظهر الفريق نفسياً الا في مستوى ما قبل المراهقة بينما تظهر النـــماذج السهلة المكونة لفريق تحتوي أربعة عناصر والتي ذكرها باربوت Barbut سهلة للفهم في مرحلة السنوات السبع او الثمانية الأولى .

ت = ب أو ن ــ أ أو ن = ب ولكن لا نحصل بالطبع أبداً على المعادلة ت = ن . يبدو واضحاً بالاجمال أنه يوجد « بنيات » بكل ما الكلمة من معنى في علم المنطق وتزداد أهميتها لنظرية البنيوية بمقدار ما نتبع تكوين علم النفس في تطور الفكر الطبيعي ، توجد اذاً هنا مشكلة من الأفضل الرجوع اليها .

٨ – الحدود البديلة للتقعيد الاستنباطي . – ولكن التفكير في البنيات المنطقية يقدمْ فائدة أخرى للبنيوية بشكل عام . تبدو هذه الفائدة في تبيان بماذا لا تختلط البنيوية مع تقعيدها وبمـــاذا تنتهج هكذا بالنسبة لحقيقة طبيعية ستجتهد في تبيان معناها شيئاً فشيئاً . في عام ١٩٣١ قام كيرت غودل باكتشاف أحدثَ دوياً ضخماً لاتهامه الآراء السائدة التي كانت تهدف الى ضم الرياضيات لعلم المنطق ومن ثم ضمها للتقعيد الصافي ، ولأن هذا الاكتشاف فرض على هذه الآراء حدوداً لا شك متحركة او تبديلية ولكنها موجودة في أي وقت كان من عملية البناء . فقد برهن غودل بالفعل ان مطلق نظرية غنية ومتماسكة ، كعلم الحساب البسيط ، لا يمكن ان تتوصل بوسائلها الخاصة او بوسائل أخرى «أضعف» (أضعف في حالة منطق وايتهيد وراسل أي منطق «المبدأ الرياضي»)، الى برهان عدم التناقض الخاص بها . وبالفعل اذا تمسكت بأدواتها الخاصة تصل الى افتراضات غير مقررة ولا تصل بالتالي الى الاشباع . وبالعكس فقد وجد فيما بعد ان هذه البراهين غير المحققة في صميم نظرية الانطلاق تغدو ممكنة اذا استعملنا وسائل أقوى . هذا ما حصل عليه جنتزن في حسابه البسيط حين اعتمد على حساب كانطور عبْر النهائي .

ولكن علم الحساب هذا لا يكفي لتكملة نظامه الخاص ولكي تتوصل الى ذلك يجب ان نلجأ الى نظريات من نوع أسمى . والفائدة الأولى التي نجنيها من هذه الملاحظات هي انها تدخل في مفهوم كبر القوة او الضعف التقريبيين للبنيات

في ميدان محدود حيث يمكن مقارنتها. وكما أوحى تدرج الخواص بالتطور، في علم الاحيــــاء ، يوحي التدرج الذي قدمناه بفكرة كاملة للبنــــاء. ويبدو بالفعل معقولاً ان تستعمل بنية ضعيفة وسائل أكثر بساطة ، وان يتناسب مع القوة المتصاعدة ، أدوات معقدة الأعداد . والحالة ان هذه الفكرة للبناء ليست مجرد تصور فكري . ويسعى التعلم الأساسي الثاني في اكتشافات غودل ، الى فرض هذه الفكرة بطريقة مباشرة لأننا اذا أردنا إكمال نظرية ما، عن طريق برهانها، وليس عن طريق عدم تناقضها لا يكفينا ان نحلل الافتراضات المبدئية بل يصبح ضرورياً ان نبني الفكرة التالية .

كان يكفينا حتى الآن ان نعتبر ان النظريات تشكل هرماً جميلاً ، يرسو على قاعدة مكتفية بنفسها ، ويكون الطابق السفلي هو الطابق الأكثر صلابة لأنه مصنوع من الأدوات الأكثر بساطة ، ولكن ، اذا كانت البساطة دليل ضعف واذا توجب ان نبني طابقاً من أجل تدعيم الطابق الذي يسبقه ، يبدو عندئذ ان تماسك الهرم أصبح متعلقاً بقمته . وهذه القمة الغير مكتملة بنفسها يجب ان ترفع بدون انقطاع .

من هنا يجب ان نقلب عندئذ هذه الصورة الهرمية وان نستعيض عنهــــا ، بالتحديد، بصورة لولبية ، تتوسع دوائرها كلما صعدت . وبالفعل تصبح عندئذ فكرة البنية المعتبرة كنظام تحويلات مرتبطة ارتباطاً شديداً ببنائية التكون المتصل . وبهذه الحالة فان حجة هذه الظروف تبدو سهلة بشكل كاف وبتناول عام كاف . استخلص غودل من النتائج التي توصل اليها اعتبارات هامة بما يخص حدود التقعيد ، ولقد أمكنَ بُرهان وجود مستويات مختلفة من المعارف نصف الشكلية ونصف الحدسية او من المعارف التقريبية على درجات متنوعة ، وذلك بالاضافة الى المستويات الشكلية . وهــــذه المستويات تنتظر اذا أمكننا القول دورها من التقعيد .

تبدو اذاً حدود التقعيد متحركة وعوضية vicariantes وليست منغلقة نهائياً كالأسوار المحددة لمطلق امبراطورية، وفي هذا المجال اقترح لادريير، تفسيراً حاذقاً يقول فيه: «لا يمكننا ان نهيمن على جميع العمليات الفكرية دفعة واحدة»[1]، وهذا الاقتراح يبدو تقريباً أولياً صحيحاً، ولكن نجد من ناحية أولى، ان عدد العمليات الممكنة في فكر تاليس محدوداً بشكل نهائي، ومن ناحية أخرى ان مقدرتنا على الهيمنة الفكرية تتغير باستمرار مع النمو الفكري، حتى غدا من الممكن توسيعها.

وبالعكس فاذا عدنا الى نسبية الأشكال والمحتويات التي ذكرناها في الفقرة (٧)، تتمسك عندئذ حدود التقعيد بنفي الشكل كشكل، والمحتوى كمحتوى. ويلعب كل عنصر، من الأفعال الحركية الحسية الى العمليات (او من هذه الى النظريات...الخ)، بنفس الوقت، دور الشكل بالنسبة للمحتويات ودور المحتوى بالنسبة للأشكال العليا. وهكذا فان الحساب البسيط «يكوّن» شكلاً «لا يُشك به ولكنه يصبح محتوى» في الحساب عبْر النهائي (بمثابة قوة معدودة). والنتيجة ان التقعيد الممكن لمحتوى معين يبقى محدوداً تبعاً لطبيعة هذا المحتوى.

ولا يوصلنا تقعيد «المنطق الطبيعي» الى بعيد بالرغم من ان هذا المنطق يكوّن شكلاً بالنسبة الى الأفعال الحسية. بينما يوصلنا تقعيد «الرياضيات الحدسية» الى أبعد بكثير، بالرغم أنه يعدلها لكي يستطيع ان يعالجها شكلياً.

والحالة اننا اذا وجدنا أشكالاً عند جميع طبقات التصرف الانساني وحتى التصورات الخيالية الحسية المحركة وعند حالاتها الخاصة من التصورات الخيالية المدركة... فهل يمكننا ان نستنتج ان مطلق شيء يشكل «بنية» وننهي عرضنا هاهنا. ذلك ممكن وفقاً لأحد المعاني، ولكن بمعنى ان كل شيء ممكن البناء

(١) ديالكتيكا Dialectica، التاسع، ١٩٦٠ صفحة ٣٢١.

structurable ولكن البنية بمـــا هي نظام تحويلات منضبط ذاتياً ، لا تطابق مع أي شكل : يشكل كوم من الحجارة بالنسبة الينا شكلاً (لأنه يوجد حسب طريقة غيستالت أشكالاً رديئة كما يوجد أشكالاً جيدة، فقرة ١١، ولكن هذا الكوم لا يمكن ان يصبح بنية إلا اذا أعطينا أنفسنا نظرية مدققة ، تساهم في ادخال النظام الكامل لحركاتها غير الحقيقية .

وهذا يؤدي بنا الى الفيزياء .

٣ البنيات الفيزيائية والبيولوجية

٩ — البنيات الفيزيائية ومبدأ السببية . — بما ان البنيوية هي الهيئة النظرية التي جددت علوم الانسان والتي لاتزال تلهم حركات العلوم الطليعية، كان من المحتم أن نبدأ بفحص ما يعنيه هذا المفهوم في الرياضيات وفي المنطق . ولكن يمكن ان نتساءل أيضاً عما يعنيه في الفيزياء ؟ وذلك لأننا لا نعلم مبدئياً اذا كانت البنيات تتعلق بالانسان او بالطبيعة او بالاثنين معاً، ولأن الربط بين الاثنين يجب ان يُبحث عنه في ميدان التفسير الانساني لظواهر الطبيعة . كان المثال العلمي للفيزيائي ولمدة طويلة يرتكز على قياس الظواهر وعلى إثبات القوانين الكمية وعلى تفسير القوانين بالرجوع الى مفاهيم كمفاهيم التسارع ، ومعامل الكثافة ، والعمل، والطاقة ، يتحدد الواحد منها تبعاً للآخر بطريقة تصون مبادىء الحفاظ على تماسكها .

لهذا اذا تكلمنا عن البنيات في هذا الطور التقليدي من الفيزياء ، نكون قد عنينا كبرى النظريات التي تنضبط في داخلها العلاقات في نظام علائقي ، كما في نظرية التصور الذاتي، ونظرية تساوي الفعل ورد الفعل، والنظرية التي تعتبر القوة كنتيجة لمعامل الكثافة والتسارع عند نيوتن ، او كما في نظرية تبادل السياقات الكهربائية والمغناطيسية عند ماكسويل .

ولكن منـــذ تزعزع « فيزياء المبادىء » « physique des principes » وتوسع البحث الى مستويات قصوى، عليا ودنيا في سلم الظواهر ، ومنذ انقلابات

الرؤى غير المتوقعة كإلحاق علم الحيل بالكهرطيس électromagnétisme نشهد تثميناً مضطرداً لفكرة البنية .

وغدت نظرية القياس، النقطة الحساسة في الفيزياء المعاصرة حتى بات البحث عن البنية يسبق القياس . وأصبحت البنية تُفهَمُ على انها مجموعة حالات وتحويلات ممكنة يأخذُ في داخلها النظام الحقيقي المدروس موقعاً معيناً ويُفسّر هذا الموقع تبعاً لمجموع الممكنات . والمسألة الأساسية التي يثيرها هذا التطور للفيزياء في البنيوية، تصبح عندئذ مسألة طبيعة السببية وعلى وجه التحديد مسألة العلاقات بين البنيات المنطقية – الرياضية المستعملة في التفسير السببي للقوانين والبنيات المفترضة من الواقع . اذا اعتمدنا على نظرية الوضعية positivisme في تفسير الرياضيات، على انها مجرد أسلوب بسيط، لما عاد هناك بالتأكيد مشكلة، ولاقتصر العلم بحد ذاته على مجرد وصف . ولكن ما ان نعترف بوجود البنيات المنطقية او الرياضية كنظام تحويلات إلا ويُطلَبُ إثبات المسألة التالية : هل ان هذه التحويلات الشكلية بعينها هي التي تعلمنا منفردة بالتغييرات والحفاظات الحقيقية المشاهدة في الظواهر . او بالعكس ان البنيات المنطقية لا تشكل إلا انعكاساً مستبطناً في داخل عقلنا للإواليات الملازمة للسببية الفيزيائية الموضوعية والمستقلة عنا، او أخيراً هل يوجد، بين هذه البنيات الخارجية والبنيات المتعلقة بعملياتنا ، رابط دائم لا يطابقها ورابط نجده في مجرى عملنا مجسداً تجسيداً حسياً في ميادين متوسطة كميادين البنيات البيولوجية او ميادين أفعالنا الحسية المحركة .

في مطلع هذا القرن اتجهت نظريتان من أكبر نظريات السببية الى الحلّين الأولين من هذه الحلول الثلاث . يصور ميرسون Meyerson السببية كمفهوم أولي لأنها تقتصر على تطابق المتنوع، ويحدد برونشفيك L. Brunschvicg السببية بالقاعدة « يوجد كون » (بالمفهوم النسبي)، ولكن الصعوبة الواضحة التي يجلبها الأول من هذين النظامين، هي أنه لا يفسر إلا الحفاظات ويبعد التحويلات، مع

أنها ضرورية بالنسبة للسببية في ميدان « اللاعقلانية » . أما النظام الثاني فمن نتيجته إلحاق البنيات العملية بالسببية واعتبار الحساب كعلم « فيزيائي - رياضي» (بالرغم عن كل ما قيل حول المثالية البرونشفيكية !) . ولكن يبقى ان نخضع هـــذه الفرضية الى تدقيق نفسي - بيولوجي psychobiologique

وعندما نعود الى الفيزياء نجد أمامنا التأكيد التالي : ان الاستنتاج الرياضي المنطقي لمجموعة من القوانين لا يكفي لتفسير هذه القوانين مـــا دام هـذا الاستنتاج استنتاجاً شكلياً : يفترض التفسير وجود كائنات او « أشيـــاء » تحت الظواهر ووجود تأثيرات واضحة لهذه الكائنات على بعضها البعض. والمثير للدهشة هو ان هذه التأثيرات تشبه في بعض الحالات والى حـــد كبير بعض العمليات . وعلى وجه التحديد بمقدار مـــا توجد صلة بين التأثيرات والعمليات بمقدار ما نشعر اننا « نفهم » ولكن الفهم والتفسير لا يقتصر اطلاقاً على تطبيق عملياتنا على الواقع ولا يقتصر على ملاحظة ان هذا الواقع « يستسلم » لعملياتنا . ان أي تطبيق بسيط يبقى داخلياً على مستوى القوانين، ولكي نتخطاه ونصل الى الأسباب يُطلب منا أكثر من ذلك : من الضروري إسناد هذه العمليـــات الى الأشياء المعتبرة كأشياء وأن نتصور ان هذه الأخيرة تشكل رمزاً حسابيـــاً opérateur [1] بحد ذاتها .

عندئذ، وعندئذ فقط، يمكننا ان نتكلم عن « بنية » سببية. هذه البنية هي المجموعة « الموضوعية » لهذه الرموز بما يخص علاقاتهـــا المشتركة الفعلية . من وجهة النظر هذه يبدو الاتفاق الدائم بين الحقائق الفيزيائية والأدوات الرياضية المستعملة لوصفها مثيراً للدهشة، لأن هذه الأدوات غالباً ما تكون قـد وجدت قبل استعمالها، وعندما بنيت نتيجة لحدث جديد ، لم تُستخلص من هذا الحدث الفيزيائي بل أعدت بطريقة استنتاجية حتى المشابهة . والحالة ان هذا الاتفاق

---

(١) مفهوم شائـــع الاستعمال في الفيزياء الجزئية وحيث تستبدل الكميات المشاهدة برموز مترابطة . ولكن هذا المفهوم يعم ليشمل المعنى الذي نعطيه إياه هنا .

لا يشكل اتفاق لغة مع الأشياء المعينة فحسب كما تعتقده « النظرية الوضعية » لأنه ليس من عادة اللغات ان تحكي مسبقاً عن الأحداث التي تصفها بل تشكل اتفاقاً للعمليات الانسانية مع عمليات الأشياء الرموز objets - opérateurs ، وبالتالي يشكل هذا الاتفاق تناغماً بين هذا الرمز الخاص (او هـــذا الصانع للعمليات العديدة) ، الذي هو الانسان بجسده وبعقله ، وبين هذه الرموز غير المحصية التي تشكل الأشياء الفيزيائية على جميع المستويات . نجد هنا اذن إما البرهـان الساطع عن هذا التناغم السابق الإثبات بـــين جواهر الأفراد monades المغلقة المصراعين التي كان يحلم بها لايبنيتز Leibnitz ، وإما اذا كان هذان المصراعان مفتوحين صدفة وليس منغلقين ، أجمل مثـــال على التكييفات البيولوجية المعروفة (أي الفيزيائية — الكيميائية والمعرفية معاً) .

اذا صح ذلك فيما يتعلق بالعمليات بشكل عام فانه يبقى صحيحاً فيما يتعلق بأعنة « البنيات » العملية . مثالاً على ذلك نعلم جيداً ان بنيات الفريق مستعملة بشكل عام في الفيزياء منذ المستوى الفيزيائي الجزئي microphysique وحتى علم الحيل السماوي النسبي Mécanique céleste relativiste . والحالة أن هذا الاستعمال ذو فائدة كبرى فيما يتعلق بالصلات بين بنيـــات الوضوح العملية والبنيات الخارجة والموضوعية .

ضمن هذا الاعتبار يمكننا ان نميز بين ثلاث حالات: نجـــد بادىء ذي بدء الحالة التي بها يتمتع الفريق بقيمة كشفية heuristique بالنسبة للفيزيائي ذلك اذا أخذنا بعين الاعتبار اننا لا نمثل فريق الرباعية quaternalité P C T حيث تعني P الشفعية parité (تحويـل من شكل خارجي configuration الى شكله المقـــابل في المرآة) وتعني C الشحنة charge (تحويل من الجزئي particule الى مقابل الجزئي antiparticule) وتعني T عكس معنى الزمن inversion du sens du temps . ثم نجد الحالة التي بواسطتها تستنتج التحويلات

من الأعمال المادية للمُختبِر، الذي يعالج المعاملات او ينسق بين القراءات الممكنة بواسطة أجهزة قياس يلاحظها مراقبون في حالات مختلفة، دون ان تشكل هذه التحويلات سياقات فيزيائية مستقلة عن الفيزيائي .

احدى انجازات فريق لورنتز Lorentz تطابق مع هذه الحالة الثانية عندما تدخل بعض التغييرات على نظام المراجع référentiel ، فتنسق بين وجهتي نظر مراقبين منطلقين بسرعتين مختلفتين ، عندئذ تصبح تحويلات الفريق تحويلات للموضوع، ولكنها ممكنة التحقيق فيزيائياً في بعض الحالات، الشيء الذي يبرهنه الانجاز الثاني لفريق لورنتز عندما نتكلم عن تحويلات حقيقية يمارسها نفس الموضوع على النظام المدروس . يوصلنا هذا الى الحالة الثالثة حيث تتحقق تحويلات الفريق فيزيائياً بصرف النظر عن معالجات المختبر ، او حين تكون هذه التحويلات مهمة من النـــاحية الفيزيائية، وذلك في الحالة « التقديرية » او الكامنة . وتتعلق هذه الحالة بتركيب القوى التي تشكل ، ومعها تفسير حالات توازن القوى ، بنية توضيحية واسعة ترتكز على بنية الفريق . وقد دعم ماكس بلانك ، الى جانب السببية الفاعلة الفكرة التي تُخضع الظواهر الفيزيائية بشكل شبه كلي الى مبدأ الفعل « الأدنى » : والحالة ان هذا المبدأ يتعلق « بعلة نهائية » تعمل بالعكس في المستقبل ، أو بتحديد أكبر يتعلق بنهاية معينة ، الشيء الذي يتبعه تسلسل السياقات التي توصل اليه[1] . ولكن قبل ان نمنح الضوئيات (photons) في داخل الشعاع الضوئي chemin optique الأقصى ، برغم جميع الانكسارات التي تعترضه عند عبور طبقــات الجو ، امكانية التعرف كـ « كائنات مجهزة بعقل » بالمزيد الى كوننا منحناها صفـــة الرموز opérateurs ، يبقى ان نتساءل كيف يتحدد في هذه الحال تكامل فيرمـــا intégrale de Fermat الذي يساوي قيمة دنيا بالنسبة الى كل الطرق المجاورة. والحالة اننا نجد هنا مجدداً ، كما في حالة «الأعمال الفرضية» «travaux virtuels»

---

(١) Max Planck, «L'image du monde dans la physique moderne» .

تفسيراً بواسطة التعديل شيئاً فشيئاً بين جميع التغييرات الممكنة في جوار الطريق الحقيقي ، ذلك اذا وضعنا الواقع ضمن التحويلات الممكنة. وأخيراً يبدو أكيداً هذا الدور للتحويلات الممكنة في حال التفسيرات الاحتمالية probabilistes : تفسير المبدأ الحراري principe therodynamique بواسطة نمــو الاحتمال (أي التصور الحراري entropic) ، يتوجب علينـا من جديد تحديد البنية بتركيب مجموع الممكنات لكي نستنتج منها الواقع (لأن الاحتمال هو خارج قسمة عدد الحالات الملائمة على عدد هذه الحالات الممكنة) وذلك بالرغم اننا نعني هنا بلاتبادلية معاكسة لتركيبات الفريق .

يوجد اذاً بالاجمال بنيات فيزيائية مستقلة عنا ولكنها تتناسب مع البنيــات العملية حتى في الميزة التي يمكن أن تظهر على أنها خاصة بنشاطات الفكر والتي تتعلق بالممكن والتي تُدْخل الواقع في نظام الفرضيات système des virtuels. وتطرح هذه الصلة بين البنيات السببية والبنيات العملية والمفهومة في حالة يعتمد فيها التفسير على نماذج مبنية جزئياً بطريقة مصطنعة او في الحالات الخـــاصة بالفيزياء الجزئية وحيث لا ينفصل تتابع السياقات عن عملية المختبر (من هنا الغاية التي ينشدها اديغتون Eddigton الذي يقدر أنه من الطبيعي جداً ان نجد بدون انقطاع أشكالاً « للفريق » (تطرح مشكلة عندما تبين التحقيقات العديدة موضوعية البنية الخارجة عنا . ويُقْدِم التفسير الأكثر سهولة في هذه الحالة على التذكير منذ البدء بأننــا نجد السببية في سلوكنا وليس في سلوك الأنا بالمعنى الميتافيزيقي للكلمة عند مان دو بيران Maine de Biran ،بل في السلوك الحسي المحرك والآلي حيث يكتشف الطفل النقل في الحركة ودور الدفع والمقاومة .

والحالة ان السلوك هو مصدر العمليات ليس لأنه يحتوي هذه العمليات مسبقاً، كما ليس لأنه يحتوي كل السببية ، بل لأن ارتباطاته العامة تحتوي على بنيــات جزئية كافية لأن تشكل نقطة انطلاق للتجريدات المعاكسة والى البناءات اللاحقة . ولكن ذلك يوصلنا الى البنيات البيولوجية .

١٠ – **البنيات العضوية** . – يشكل الجسم الحي في نفس الوقت نظـــاماً فيزياكيميائي بين الأنظمة الأخرى، ومصدر نشاطـــات الشخص الذي تدرس انفعالاته . اذا (كما قدمنا في الفقرة ١) كانت البنية نظاماً كاملاً من التحويلات المنضبطة ذاتياً ، يشكل عندئذ الجسم الحي بعيماً prototype للبنيات واذا كنا نعرف بنيته بشكل محدد فانه يمنحنا مفتاح البنيوية نظراً لازدواجية طبيعته كموضوع فيزيائي مركب وكمحرك للتصرف. ولكننا لم نصل بعد الى هذا الحد. فالبنيوية البيولوجية الحقيقية لا تزال بعد في طور التكوين بعـــد قرون من التخفيضية réductionnisme المسهلة او الحيوية vitalisme الشفهية أكثر مما تكون تفسيرية. وهذا الاعتراف الضمني بالتراجع الذي يقدمه لنا شكل التطور بواسطة التغييرات المفاجئة والمنسقة بعد ضربه، والذي لا يزال للأسف على درجة من الاحترام في ميادين عدة . بهذا نكون قد نسينا حدثين أساسيين الأول ان الفيزياء لا تنتهج الجمع التراكمي للمعلومات، وأن الاكتشافات الجديدة تؤدي بنا الى اعادة صياغة المعلومات أ ، ب ، ج ... الخ وتبقى هكذا مجهولات المستقبل س، م، ... الخ، والحدث الثاني هو أن في الفيزياء نفسها تؤدي تجارب التخفيض، من الكهراطيسية الى الأوالية ، تؤدي بعكس التركيبات الجممية او المطابقة الى تركيبات حيث يغتني الأدنى من الأعلى وحيث يضـــع التمثيل المعاكس assimilation réciproque ، الذي يستنتج من التركيبـــات ، في حيز الوجود بنيات المجموع . يمكننا بذلك ان ننتظر ، من دون ان نقلق ، حدوث التخفيضات من الحيوي الى الفيزياكيميائي، لأنها لن تخفف بالفعل شيئاً بل تحول لصالحها حدي التناسب . وتجـــارب التخفيض هذه المسهلة والمعاكسة للبنيوية antistructuralistes ، عورضت من قبل النظرية الحيوية بواسطة أفكار الجملة والقصدية finalité الداخلية او الخارجية ... الخ . ولكن هـــذه الأخيرة لا يمكن أن تعتبر بنيات ما دمنا لم نحـــدد الكيفيات السببية والعملية للتحويلات المعتبة في داخل النظام . كما أن نظرية « البروز » emergence التي دافع عنها لويد مورغان Lloyd Morgan وآخرون غيره تقتصر على ملاحظـــة وجود

المجلات في مختلف المستويات. ولكن القول بأنها « تبرز » في وقت معين لا يرتكز إلا على الاشارة بأن هنالك مسائل . ومن ناحية أخرى، اذا كانت الحيوية قد شددت على الجسم الحي كموضوع او كمصدر للموضوع بعكس أوالية الموضوع، فقد اكتفت دائماً بتصوير للموضوع مستوحى من استنباطات المعنى المشترك او من العلم الماورائي للأشكال الارسطوطاليسية كما عند دريش Driesch . من المهم هنا الإشارة الى التجربة الأولى للبنوية التفسيرية في البيولوجيا وهي عضوانية برتلانفي L Von Bertalanffy المستوحاة من أعمال السيكولوجيا التجريبية في ميدان الصيغات أو البنيات المدركة والمحركة . وإذا كانت أعمال هذا المنظر في علم البيولوجيا ذي قيمة لا تناقش نظراً لمجهودها المبذول في تأسيس « نظرية عامة للأنظمة » ، فإن التحسينات الداخلية في الفيزيولوجيا المقارنة وفي علم الأجنة embryologie السببية وفي علم الوراثة génétique ، وفي نظرية التطور وفي علم الأخلاق ... الخ كانت ذات دلالة بالغة فيما يتعلق بالتوجيه البنيوي الحالي للبيولوجيا .

استعملت الفيزيولوجيا منذ زمن بعيد بتطويرها أعمال كلود برنارد مفهوماً رئيسياً بالنسبة للبنية هو مفهوم الـ homéostasie الذي يعود اكتشافه إلى كانّون وبرجوعها إلى توازن دائم للوسط الداخلي وبالتالي إلى ضبطه . هذا التصور يؤدي بنا إلى إبراز فكرة الضبط الذاتي بالنسبة للجسم الحي بكامله . والحالة أن هذا الضبط الذاتي يتعدى بنقاط ثلاث الأشكال الفيزيائية المعروفة للتوازن ، بشكل خاص التعديلات الجزئية عند « انتقالات التوازن » حسب مبدأ لو شاتوليه . نلاحظ أولاً أن ضبط البنية العائد باديء ذي بدء إلى الانتظام الذاتي العام يؤمن نفسه فيما بعد بواسطة أعضاء مميزة عن هذا الانتظام . وهكذا تتيح مختلف عوامل تجميد الدم كما يرى ماركون جان ، تتيح الفرصة لانتظام عفوي قديم نسالياً phylogénétique (على الأرجح منذ الكولنترين) ثم تخضع لمراقبة عضو انتظام أول مع الجهاز الهرموني ، وأخيراً تخضع لعضو ثان مع الجهاز العصبي . ثانياً وبالتالي ، تحتوي البنية الحية على عمل مرتبط بعمل

الجسم الحي بمجمله بشكل أنهـــا تشغل وظيفة بالمعنى البيولوجي المحدد بالدور الذي تلعبه البنية التحتية بالنسبة للبنية الكاملة . وأنه لمن الصعب رفض هذه الفكرة في ميدان الحيـــاة ولكننا نجد في الميادين المعرفية مؤلفين يطرحون البنيوية كنظرية مضادة لأية نظرية نفعية fonctionnalisme وهذا يشكل رأياً تجب مناقشته . ثالثاً تعطي البنيات العضوية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع الميزة النفعية لهذه البنيات مظهراً تجهله البنيات الفيزيائية (فقط بالنسبة للفيزيائي) ، هذا المظهر يقضي بالرجوع إلى المعاني هذه المعاني تبدو واضحة بالنسبة للموضوع الحي في التصرف حيث تضع البنيات الفطرية بشكل خاص في عين الاعتبار جميع أنواع « الإشارات الدالــة » الوراثيـة (I R M. innate releasing (mechanisms) ولكن هذه البنيات تبقى محتواة في كل عمل منذ التفريق البيولوجي المحض بين العادي والشاذ .

مثالاً على ذلك، في حالة خطر الاختناق عند الولادة يتيح تجمد الدم الفرصه إلى انتظام عصبي فوري ، ولكن الـ homeostasie لا تحتوي فقط على معنى فيزيولوجي . فمن أهم مكتسبات البنيوية البيولوجية المعاصرة هي أنها تخلت عن صورة الـ génome المعتبرة كتجمع مورثات gènes منعزلة وتخدم النظام حيث لا تلعب المورثات دورها كعازف انفرادي وإنما كأوركسترا كاملة على حد تعبير Dobzhansky ؛ مع وجود مورثات ضابطة بشكل خاص وحيث تنتظم العملية بواسطة عدة مورثات من أجل واحدة، أو تنتظم العملية بواسطة مورثة واحدة من أجل عدة ميزات... الخ ولا تعود عندئذ الوحدة الوراثية تشكل génome منعزلاً بل تشكل «السكان» وذلك ليس مع مجرد خليط بسيط، بل مع اندماج سلالات بطريقة تظهر الـ pool homeostasic وراثية الشيء الذي يعني توازناً يريد احتمال البقاء ومبرهناً بالطريقة التي قدمها دو بهانسكي وسبلسكي، تخلط عدة سلالات معروفة في « قفص سكاني » وندرس مستوياتها بعد عدة أجيال . والأفضل من ذلك لا يعود سياق التغيير الأساسي تغياراً إحيائياً mutation وإنما «إعادة تنظيم» وراثي، الشيء الذي يشكل الأداة الرئيسية لتكون البنيات

الوراثية الجديدة . وفي ميدان الأصل الجنيني embryogenèse شددت الميول البنيوية،التي تعمل منذ اكتشاف منسقات الانتظامات البنيانية والتجددات، على أعمـال وادنغتون Waddington التي أدخلت مفهوم الـ homéorhésis أو التوازن الحركي للنمو المتعادل للانحرافات الممكنة حو الـ créodes أي الطرق الضرورية التي يتبعها هذا النحو . والأهم من ذلك أن وادنجتون بيّن التفاعل بين الوسط والتأليف الوراثي في أثناء النمو (تكون الـ phénotype) ، وركز على أن الـ phénotype يشكل جواباً للـ génome بالنسبة لتطلبـــات الوسط والتنسيق يتعلق بهذه الأجوبة وليس بالـ génothype نفسها : من هنا إمكانية « التمثيل الوراثي » بواسطة هذه التنسيقات أو تثبيتات الميزات المكتسبة . وبشكل عـــام يرى وادنجتون، في العلاقات بين الوسط والجسم الحي، دارة إحيائية آلية ينتقي بواسطتها الجسم الحي وسطه، بينما يكيفه هـــذا الأخير ويتعدى مفهوم البنية المنضبطة ذاتياً،الفرد والسكان أنفسهم،لكي يشمل المركب . [المتعلق بالسكان milieux phénotype Pool génétique] ويكون هذا التفسير أساسياً فيما يتعلق بمعنى التطور .

كما أنه يوجد مؤلفين يعتقدون أن التطور الجنيني كله سابق تكون رافضين بذلك مفهوم الأصل المتعاقب epigenèse (التي يعيد إليها وادنغتون بالعكس معناها الكامل ، قامت في هذه السنوات الأخيرة نظريات تدعم الفكرة التي تقول بأن التطور الكامل كان سابق التحديد بواسطة تركيبات ترتكز على مركبات الحوامض النواتية ADN . نكون بذلك قد حصلنا على النجـــاح الكامل للبنيوية السابقة التكوين للتطور نفسه . وفي تصحيح دور الوسط الذي يثير الآن مسائلاً تجيب عليها التغيرات الداخلية النمو endogene نعيد إلى التطور معناه الديالكتيكي بدل أن نرى في ذلك قضاءً أبدياً تصبح أخطاؤه وثغراته غير قابلة للتفسير .

هذه الإنجازات للبيولوجيا المعاصرة هي ثمينة بالنسبة للبنيوية بمقدار مـــا

تمنحه القواعد اللازمة للبنيوية النفسية الوراثية عندمــا تشمل النظرية المقارنة للتصرف أو الأثولوجيا . وبالفعل فقد أكدت الاثولوجيا من جهــة وجود بنية مركبة للغرائز إلى درجة بتنا معها نتكلم اليوم عن منطق للغرائز ونحلل منهــا مختلف المستويات التسلسلية وبذلك تشكل الغريزة منطقاً للأعضاء أو أدوات عضوية قبل أن تتشكل أفعال مبرمجة وراثياً وأدوات مصنوعة . ومن جهة أخرى، وهذا لا يقــل أهمية، تميل الأثولوجيا الحالية إلى تبيان ان كل تعليم وكل حفظ لا يقوم إلا بارتكازه على بنيات مسبقة ، ويمكن أن يكون ذلك بنيات الحوامض النواتية ARN أو ADN للمواد الوراثية . وهكذا فان الاحتكاك بالتجربة والتغيرات الأكثر عشوائية والمكتسبة تبعاً للوسط الذي بحثت داخله التجريبية عن نموذج لتكوّن المعلومات، ان هذا الاحتكاك لم يرسخ إلا بواسطة تمثيلات لبنيات لم تكن كلها فطرية ولا ثابتة ، ولكنها راسخة وأكثر ثبوتاً من التلمسات التي تبدأ منها المعرفة التجريبية .

وبكلمة فإن « الجبلات » و « الانتظامات الذاتية » البيولوجية مع كونها مادية وذات محتوى فيزيا ـ كيميائي ، فانها تفهم العلاقة غير المنفصلة بــين البنيات والموضوع ، لأن الجسم الحي هو مصدر هذا الموضوع . إذا كان الإنسان لا يشكل إلا مزقاً « في ترتيب الأشياء » على حد تعبير ميشال فوكو ويشكل منذ أقل من قرنين مجرد ثنية في علمنا ، يبدو مع ذلك مفيداً أن نتذكر أن هذا المزق وهذه الثنية ينجمان عن تصدع واسع لا بــأس بتنظيمه ، ويتألف من الحياة بكاملها

٤ البنيات النفسية

١١ — بدايات البنيوية في علم النفس ونظرية « الصيغة » La Théorie de la Gestalt. يمكن الاعتبار بأن مفهوم البنية في علم النفس قد ظهر منذ أوائل هذا القرن ، عندما تعرض « علم نفس الفكر » من مدرسة ورزبرغ للترابطية (في نفس الوقت الذي كان يعترض لها « بينه » في فرنسا « وكلا بريد » في سويسرا) التي كانت تدعي تفسير كل شيء بترابطات ميكانيكية بين عناصر مُسبقة (إحساسات وصور) . ومما يدعو للدهشة ، بالإضافة إلى ذلك ، إكتشاف أن « بوهلر » قد أبرز منذ تلك الحقبة ، بأساليب بحث اختبارية ،الميزتين النسبيتين للبنية التي استعملتها الفينومينولوجيا phénoménologie باستمرار منذ ذلك الحين : القصد والمعنى (اللذان يطابقان ، من جهة أخرى ، مفاهيم التحويلات مع التنظيم الذاتي، وهي التي أدرجناها في تحديدنا الموضوعي في الفقرة الأولى) . وبالفعل فقد برهن بوهلر ليس فقط بأن الحكمَ هو عمل موحِّد (الشيء الذي كان يتفق عليه دفعة واحدة جميع المناقضين للترابطية) بل ان للفكر درجات من التعقيد المتزايد أطلق عليها لفظة bewusstheit (أي فكر مستقل عن الصورة يعطي المعاني) ولفظة Regelbewusstsein (أي وعي للقاعدة التي تتعلق ببنيات العلاقات . الخ .) ولفظة Intentio أو عمل تركيبي مُوَجَّه يقصد الشكل الشامل أو النظام من التفكير إلى الفعل .

غير انه ، بدلاً من أن يتوجه « علم نفس الفكر » في الاتجاه الوظيفي للجذور

النفسية الوراثية والبيولوجية ، فإنه لم يكتشف بالنهاية سوى بنيات منطقية، ذلك أنه دفع بتحاليله في الميدان المجزّ الوحيد في الذكاء الراشد (ومن المعلوم فضلاً عن ذلك ، ان الرجل الراشد الذي يدرسه العالم النفسي يختاره دائماً من بين مساعديه أو تلاميذه) ، في حين أن تحليلاً للنشأة يؤدي حتماً إلى قلب هـذه الألفاظ .

أما الشكل المذهل للبنيوية النفسية فقدمته بلا شك « نظرية الصيغة » التي ولدت سنة ١٩١٢ من أعمال و . كوهلر و م . ورتيمر المتقاربـة ، وامتدادها إلى علم النفس الاجتماعي ، الذي يعود فضله إلى ك . لفين وإلى تلاميذه[١] .

تطورت نظرية الصيغة (أو الجشطلت) في جوالفينومينولوجيا ، ولكنها لم تأخذ منهـا سوى مفهوم تفاعلية أساسية بين الذات والموضوع[٢] وصممت الالتزام بالاتجـاه الطبيعي Naturaliste الذي يعود إلى تكوين كوهـلر كفيزيائي وإلى الدور الذي لعبته ، عنده وعند غيره ، نماذج « المجالات » les modèles de « champs ».

وبالإضافة إلى ذلك أثّرت هذه النماذج على النظرية تأثيراً يمكن الحكم عليه اليوم ، من نواح ، بأنه مشؤوم ، وذلك رغم كونه كان مثيراً في مبدئه .

وبالفعل، يشكل مجال القوى ، كمجال كهراطيسي، جملة منظمة تماماً ، أي حيث يأخذ تركيب القوى شكلاً معيناً حسب الوجهات والشدائد intensités ، غير ان المقصود هنا تركيبٌ يحصل تقريباً في الحال ، وإذا كان يمكن الكلام عن تحويلات ، فإنها شبه فورية . والحال ، أن سرعة التيارات الكهربائية أبطأ بكثير في ميدان الجهاز العصبي وفي «المجالات» حيث تتعدد نقط الاشتباك العصبي، (٣ الى ٩ دورات في الثانية للتموجات من ٢ الى ٥) . وإذا كان سريعاً تنظيمُ

(١) بشأن بنيوية لفين Levin ، راجع الفصل السادس .
(٢) زد على ذلك أنه مفهوم برونشفيكي ، وديالكتيكي بشكل عام .

الإدراك الحسي انطلاقاً من الاختصاصات afférences فليس ذلك سبباً لتعميم هذا المثل على جميع الجشطلتات. والحال ان الانشغال بتأثير المجال أدى بكوهلر الى جعله لا يرى العمل الذكي الصحيح إلا في « الفهم الفوري » وكأن التحسسات السابقة للمقصد النهائي ليست قبلاً نابعة عن ذكاء. والمسؤول، بدون شك، عن الاهمية الضئيلة التي خصّها الصيغيون للاعتبارات النفعية والنفسية الوراثية وبالنهاية لنشاطات الذات هو، بالاخص، نموذج المجال. هذا لا يمنع الجشطلت من ان تمثّل، وبالضبط لأنها مفهومة على هذا الشكل، نوعاً من البنيات يحلو لعدد مُعين من البنيويين يقوم مثالهم، الضمني أو المعترف به، على البحث عن بنيات يمكن لهم اعتبارها «خالصة pures» لأنهم يودونها لو تكون بدون تاريخ وبالاحرى بدون نشأة، بدون وظائف وبدون علاقات مع الذات. ومن السهل بناء جواهر كهذه في الميدان الفلسفي، حيث الاختراع محرر من اي ضغط، ولكنه يصعب ايجادها في ميدان الواقع الذي يمكن التحقق منه. والجشطلت تقدم لنا مثل هذه الفرَضية : ينبغي إذا تفحص قيمتها باهتمام.

الفكرة الرئيسة للبنيوية الصيغية Gestaltiste هي فكرة الجملة. كان اهرنفلز قد برهن سنة ١٨٩٠ على وجود إدراكات تقوم على النوعيات الجماعية او الشكلية (Gestalqualetat) للاشياء المركبة كنغم أو سيماء : وبالفعل، إذا نُقِل النغَم من لحن إلى آخر فقد تتغير جميع الأصوات الخاصة لكن النغم يبقى رغم ذلك معروفاً. غير أن اهرنفلز كان يرى في هذه النوعيات الجماعية تطابقاً مع تلك التي للأحاسيس.

أمـــا الابتكار الذي جاءت به نظرية الصيغة فيكمن في أنها تنكر وجود الاحساسات على أنها عناصر سيكولوجية مسبقة، ولا تُحمّلهـــا سوى دور عناصر « مَبْنِيّة » وليس « بانِيَة ». إن المعطى، منذ البداية، هو جملة بما هي جملة، أما المراد فهو تفسيرها : وهنا تدخل فرضية المجال، التي حَسْبُها، لا تصيب الاختصاصات الدماغَ منعزلاً، بل تصل، بواسطة المجال الكهربائي

للجهاز العصبي، إلى « اشكال » في التنظيم شبه فورية . أما ما يبقى فهو الكشف عن قوانين هذا التنظيم .

والحال ، كما في المجال تخضع العناصر دوماً للكل ، أي تعديل محلي يسبب تبدلاً في المجموع ، فإن القانون الأول للجملات المدركة ليس فقط انه يوجد خصائص للكل بما هو كل ، بل أيضاً ان القيمة الكمية للكل لا تساوي قيمة مجموع الأجزاء . وبكلمة أخرى، ان هذا القانون الأول هو قانون التركيب غير الجمعي للكل ، وكلام كوهلر حول هذه النقطة واضح جداً إذ انه يرفض ، في كتابه حول Die physischen Gestalten إعطاء تركيب القوى الميكانيكية ميزة الجشطلت وذلك بسبب تركيبها الجمعي . ويسهل في ميدان الادراكات ، التحقق من هذا التركيب غير الجمعي : يبدو الفراغ المجزّء أكبر من الفراغ غير المجزء ؛ ويبدو الجسم المركب (أ) + (ب) (قضيب من رصاص تعلوه علبة فارغة ، بحيث يشكل كليهما شكلاً بسيطاً ذات لون مُتّسِق) في بعض خِدَع الوزن ، أقل ثقلاً من القضيب (أ) بمفرده (هذا بما يخص الملاقات مع الأحجام الخ . . .) .

والقانون الأساسي الثاني هو قانون نزعة الجملات المُدركة الى الأخذ «بالشكل الأفضل» الممكن (قانون رسوخ بنية «الأشكال الحسنة» bonnes formes) ، وتتميز هذه الأشكال الراسخة البنية بسهولتها وانتظامها وتوازنها واستمرارها وتقارب عناصرها الخ . وهي ، في فرضية المجال ، من نتائج المبادىء الفيزيائية للتوازن ولأقل حركة (d'extremun كما في حالة جسطلتات فقاقيع الصابون : الحجم الأكبر مقابل المساحة الأصغر) الخ ... كما توجد قوانين أخرى مهمة تُحقّقَ منها كثيراً (قانون الصورة التي تبرز دائماً عن الخلفية ، قانون الحدود التي تخص الصورة لا الخلفية ، الخ .) غير ان القانونين السابقين يكفيان للمضي في بحثنا .

ويجدر أولاً التشديد على أهمية مفهوم الموازنة الذي يسمح بتفسير رسوخ بنية

الأشكال الحسنة وبالاستغناء عن قطريتها: بما ان قوانين التوازن جبرية، فيكفي فعلاً عرض عمومية هذه الساقيات دون الحاجة لاسنادها الى أي وراثة . ومن جهة أخرى ، تؤلف هذه الموازنة ، كسياق فيزيائي وفيزيولوجي [فسلجي ، وظائفي] معاً ، نظاماً للتحويلات ولو انها جد سريعة ، وفي نفس الوقت نظاماً مستقلاً في ضبطها . هاتين الخاصتين ، بالاضافة الى القوانين العامة للجملات ، تجملان (الجشطلت) تدخل في تحديد البنيات المقترح في الفقرة الأولى .

يمكن التساؤل ، بالمقابل ، وحتى في ميدان الادراكات فحسب ، عما اذا كانت فرضية المجال ، مع نتائجها المتنوعة المناقضة للنفسية ، تكفي لتحليل الظواهر . وبرهن بيارون، بما يخص المجال الدماغي، انه اذا قدّم لعين منفردة، كلاً من مُنبّهين خلال تجربة اعتيادية لحركة ظاهرية، فان هذه الحركة لا تحصل بسبب انعدام التيار المباشر الذي تفترضه النظرية بين نصفي كرة الدماغ . يمكن ، من المنظور النفسي، اخضاع الادراكات لجميع أنواع التماهير[1] مما يوافق قليلاً التفسير بالمجال الفيزيائي . وقد برهن برونشفيك على وجود ما سمّاه « بالجشطلت التجريبية » ، في مقابل « الجشطلت الهندسية : فمثلاً ، اذا عرضنا، بنظرة سريعة (بواسطة مبصار) ، شكلاً وسطياً ما بين يد وصورة ذات خمس أصابع تماثلية الى حد كبير ، فان نصف الراشدين فقط يصححون الشكل من وجهة الصورة (قانون الشكل الحسن الهندسي) بينما يصححه النصف الثاني من وجهة اليد (الجشطلت التجريبية) : والحال انه اذا تغيرت الادراكات تحت تأثير الاختبار ، وكما يقول برونشفيك ، تحت تأثير احتمالات الحوادث (التواترات النسبية للنماذج الحقيقية) ، فهذا يعني ان تركيبها يخضع لقوانين وظيفية لا فيزيائية فقط (قوانين المجال) ، وقد اضطر «ولاش» ، مساعد كوهلر الرئيسي ، ان يتحقق بنفسه من دور الذاكرة في التراكيب المدركة .

---

(١) التمهير : طريقة تتيح إقامة علائق بين عدد من المنبهات والاستجابات في الكائنات الحية يتأتى عنها اكتسابها مهارات خاصة للتكيف مع بيئتها . ـ المترجم ـ

من جهة أخرى ، أظهرنا نحن من جانبنا ومع مجموعة من معاونينا[1] ان الادراكات تتطور مع السن تطوراً ملحوظاً . وانه بالاضافة الى مفاعيل المجال (على ان تفهم اللفظة هنا بمعنى مجال تركيز النظر) ، توجد نشاطات مدركة ، او مربوطة بملاقات عبر استكشافات شبه قصدية ومقارنات عملية الخ ... ، تعدل من الجشطلت في مجرى التطور بشكل ملموس : إذا قمنـــا بدراسة استكشافات الصور ، بشكل خاص ، من خلال تسجيل الحركات البصرية ، نلاحظ ان هذه الأخيرة في تنسيق وتحكم يتحسنان مع السن . أمـــا بالنسبة لمفاعيل المجال ، فان تفاعلياتها شبه الفورية تبدو عـــائدة لإوالية احتمالية من « الالتقاء » بين أقسام العضو المسجّل وأقسام الصورة المدركة» وخـــاصة من « مزاوجات » او تطابقات بين هذه الالتقاءات . من هذه الترسيمة الاحتمالية يمكن استنباط قانون ينسف بين شتى أنواع الخِدَع البصرية ـ الهندسية المستوية المعروفة حالياً .

بكلمة ، ليست الذات ، حتى في ميدان الادراكات ، مجرد مسرح تلعَب على عتباته مسرحيات مستقلة عنه ومضبوطة مسبقـــاً بقوانين موازنة فيزيائية اوتوماتية : فهي الممثلة ، وغالباً أيضاً مؤلفة تراكيبها، تحكمُها بالتتابع مع تلاحقها بواسطة موازنة عملية مصنوعة من التعويضات المقـــابلة للاضطرابات الخارجية واذاً لضبطٍ ذاتي متواصل .

وان ما يصلح في ميدان الادراك ، يفرض نفسه بالأحرى في ميادين القوة المحركة والذكاء، التي كان الصيغيون يريدون اخضاعها لقوانين تركيب الجشطلت بشكل عام ولا سيما المدركة منها . يعرض كوهلر ، في كتاب حول الذكاء عند القرود المتفوقة ، وهو كتاب رائع من ناحية الوقائع التي وصفها ، يعرض لفعل الذكاء في إعادة التنظيم الفجائية للمجال المدرك في اتجـــاه أفضل الأشكال . كما

---

(١) J. Piaget, « Les mécanismes perceptifs » Presses Universitaires de France.

حاول «ورتيمر» من جهته قصر لعبة الجدالات الشكلية او البراهين الرياضية على بَنْيَنة ٍ ثانية تخضع لقوانين الجشطلت . تعترض هذه الشروح صعوبتان كبيرتان بسبب اتساع فرضيات المجال . تكمن الأولى في أن البنيات المنطقية الرياضية ، رغم كونها تنطوي بدون أدنى شك على قوانين جملات (راجع الفقرات من ٥ الى ٧) ، ليست الجشطلتات إذ ان تركيبها جمعيٌ قطعاً (٢ + ٢ يساوي تماماً ٤ رغم أن، أو لأن هذا الجمع يُشرِك قوانين بنية الفريق الكاملة) . أما الثانية فتكمن في كون الذات الحسية او الذكية نشيطة ، فهي تبني بنياتها بنفسها ، بطرق تجريداتها العاكسة التي ليس لها أية علاقة بالصورة المدركة إلا في حالات جد استثنائية . لكن المشكلة هنا تبدو رئيسية بالنسبة للنظرية البنيوية فينبغي إذاً تفحصها عن كثب .

١٢ – **البنيات ونشأة الذكاء .** يمكن اسنـــاد جميع أنواع الانطلاقات الى البنيات . فاما ان تكون قد قدمت كما هي على غرار الجواهر الأبدية ، أو انبثقت ، دون معرفة السبب ، في مجرى هذا التاريخ ذو النزوات، الذي يسميه ميشال فوكو Michel Foucault بعلم الأثريات «Archéologie» ، وإما ان تكون قد استُخرجت من العالم الفيزيائي حسب طريقة الجشطلت ، أو انهـا تتعلق بالذات بطريقة او بأخرى . لكن هذه الطرق ليست متعذرة الاحصاء ولا يمكن لها إلا ان تتوجه، نحو إما فطرية ٍ يُذَكّرُ سبـــق تكوينها بالتحديد المسبق (إلا في حال إرجاع هذه المصادر الوراثية للبيولوجيا مما يثير ضرورة مشكلة تكوينها) ، وإما انبثاق جائز (مما يعيد بنا الى عـــلم الأثريات الذي تكلمنا عنه منذ قليل ، ولكن داخل الطبيّة النسبية او الانسانية) وإما بناء . في المجموع لا يوجد سوى ثلاثة حلول : إما سبق تكوين ، وإما خلق جائز ، وإما بناء (لا تشكل عملية استخراج البنيات من التجربة حلاً مميزاً لأنه إما ان لا تكون التجربة مركبة إلا بتنظيم يكيفها مسبقاً، وإما ان تكون قد تكونت بطريقة توصل مباشرة الى بنيات خارجية تألفت سابقاً في العالم الخارجي) .

بما ان الانبثاق الجائز يتناقض تقريباً مع فكرة البنية ، (سنعود ونتناول هذا الموضوع في الفقرة ٢١) ، كما يتناقض مع طبيعة البنيات المنطقية الرياضية، فان المشكلة الحقيقية تكمن في التحديد المسبق او البناء . ويبدو ، لأول وهلة ، ان سبق تكوين أي بنية تؤلف جملة منغلقة ومستقلة، هو فارضاً نفسه . ومن هنا التجدد الدائم للنزعات الافلاطونية في الرياضيات وفي المنطق ، ومن هنا أيضاً نجاح نوع من البنيوية الجامدة عند المؤلفين المأخوذين بالمنطلقات المطلقة او بالمواقف المستقلة عن التاريخ وعن علم النفس . ولكن ، بما ان البنيات ، من جهة أخرى هي أنظمة تحويلات تتوالد الواحدة من الأخرى عبر سلالات أصل (Généalogies) على الأقل بجردة ، وان البنيات الأكثر صحة هي ذات طبيعة عملية ، فان مفهوم التحويلات يشير الى مفهوم التكوين ومفهوم الضبط الذاتي يستدعي البناء الذاتي .

تلك هي المشكلة الرئيسية التي تلقاها الأبحاث حول تكوين الذكاء . انها تلقاها بفرض الأمور نفسها إذ ان المقصود هو تفسير كيفية استيعاب الذات التي في طور النمو ، للبنيات المنطقية الرياضية . فإما ان تكتشفها متجزة لكنه من المعروف انها لن تلاحظها كما تُدرك الألوان او هبوط الأجسام ، وان بثّها التربوي (العائلي او المدرسي) لا يجدي إلا بقدر ما يملك الطفل حداً أدنى من أدوات الاستيعاب (Assimilation) وهي نوع من أنواع (سنرى في الفقرة ١٧ كيف ان هذا الأمر يطابق أيضاً التمثلات اللغوية) . وإما على العكس، ان نسلم بأنها (أي الذات) تبنيها ، ولكنها ليست حرة بأن ترتبها كما يحلو لها كما ترتب لعبة او رسماً . والمشكلة الخاصة لهذا البناء هي في توضيح كيفية وسبب توصيله الى نتائج حتمية ، « كما لو » كانت دائماً محددة سابقاً .

ولكن ، تظهر الملاحظات والتجارب بالطريقة الأكثر وضوحاً بأن البنيات المنطقية تُبنى حتى انها لتأخذ في تكوينها إثني عشرة سنة لا بأس بها . لكن هذا البناء لا يخضع لقوانين أي تمهير بل لقوانين خاصة به : بفضل اللعبة

المزدوجة من التجريدات العاكسة (راجع الفقرة ٥) التي تُزوّد بمواد البناء تبعاً للحاجات ، ومن الموازنة ، بمعنى الانتظام الذاتي ، التي تقدم التنظيم التماكسي الداخلي للبنيات، تؤدي هذه الأخيرة ، وعبر بنائها نفسه ، الى الحتمية التي كانت تعتبر القبلية (apriorisme) دوماً أن وضعها في الانطلاقات او بين الشروط المسبقة أمرٌ ضروري ، ولكن في الواقع التي لا يُحتاج إليها إلا في النهاية .

وبالطبع ، إن البنيات الانسانية لا تصدر عن لا شيء ، وإذا كانت كل بنية وليدة نشأة ما فيجب عندئذ الاقرار بعزم ، وبالنظر إلى الوقائع ، بأن النشأة تشكل دائماً الممر من بنية بسيطة إلى بنية أكثر تعقيداً وذلك في سياق تراجع لا نهاية له (وذلك نظراً لما هو عليه العلم في الوضع الحالي) . هناك إذاً معطيات انطلاق يجب نسبتها إلى بناء البنيات المنطقية ،ولكنها ليست معطيات أولية ،إذ أنها تحدد فقط بداية تحليلنا وهذا لعدم إمكانيات الرجوع إلى أبعد من ذلك . كما انها ليست حتى معطيات تملك ما سيكون في نفس الوقت مأخوذاً عنها ومرتكزاً عليها في تتابع البناء .

وسنشير إلى معطيات الإنطلاق هذه باللفظة الشاملة : « التنسيق العام للافعال » . ونقصد بذلك الروابط المشتركة لجميع التنسيقات الحسية دون الدخول في تفصيل تحليل المستويات مبتدئين بالحركات التلقائية للجسم وبالإرتكاسات (Reflexes) التي تشكل فيه بدون شك تفريقات راسخة، أو أيضاً بمقدتي الإرتكاسات والبرمجة الفطرية كَرَضْعة المولود وحتى نصل عبر العادات المكتسبة إلى عتبة الذكاء الحسي أو السلوك الأدَويّة . والحال ، نجد في جميع هذه المسالك ذات الجذور الفطرية والتفريقات المكتسبة،بعض العوامل الوظيفية وبعض العناصر البنائية المشتركة . والعوامل الوظيفية هي التمثّل assimilation أي السياق الذي حسبه يعاود السلوك عملياً ويدمج معه أهدافاً جديدة Objets (نحو : مص الابهام مدخلاً هذه العملية في سياق تصور بنية الرَضعة) وتكييف تصورات التمثّل مع تنوع الأهداف . والعناصر التركيبية

هي اساساً علاقات تسلسل (تسلسل الحركات خلال ارتكاس ، تسلسلها خلال عادة مـا ، تسلسلها في الصلات بين الاساليب والمرامي) ، والتداخلات emboîtements (خضوع تصور سهل إلى آخر أكثر تعقيداً) والتطابقات correspondances (في التمثلات الاعترافية assimilations recognitives الخ .) .

والحال ، تسمح هذه الأشكال الأولية للتنسيق ، عَبْر لعبة التمثلات السهلة والمتقابلة reciproques ، ومنذ المستوى الحسي الذي يسبق الكلام ، تسمح بتأسيس بعض البنيات المتوازنة ، أي التي تؤمن إنتظاماتها درجـة معينة من المعكوسية . والشكلان الجديران أكثر بالملاحظة هما أولاً الفريق العمـلي للإنتقالات (تنسيق الإنتقالات ، اللف والدوران: راجع الفقرة ٥) مع الثابت المرتبط به ، هذا يعني : بقاء الأشياء التي تخرج من المجـال المدرك والتي يمكن الاهتداء اليها بإعادة تشكيل انتقالاتها، وثانياً ذلك الشكل للسببية التي جُعِلت موضوعية وحيّزية، والتي تتدخل في السلوكات الأداتية (جذب الأشياء للنفس باستعمال قاعدتها او عصاً ، الخ .) . يمكن عندئذ الكلام عن ذكاء على هـذا المستوى ، لكن عن ذكاء حسّي ، خالٍ من التصورات ومرتبط أساساً بالفعل وتنسيقاته .

ولكن ، مـا أن تسمح الوظيفة الرمزية[١] la fonction sémiotique (اللغة ، اللعبة الرمزية ، الصور ، الخ .) بالتعبير عن إدراكات لم يتم إدراكها حـالياً ، أي التصور او الفكر ، حتى نشهد أولى التجريدات العاكسة التي تفترض جذب بعض الارتباطات من تصورات البنية الحسية ، إرتباطات تنعكس (بالمعنى الفيزيائي) على هذا الصعيد الجديد الذي هو صعيد الفكر ، وتتكون على شكل سلوكات مميزة وبنيات تصورية . وتُستَخلَص مثـلا العلاقات

---

(١) أي الوظيفة التي تقوم على صنع الرموز وتركيبها . المترجم

التسلسلية التي كانت تبقى مدرجة ، على الصعيد الحسي ، في أية بنية تصورية مُبَيّنة ، فتفسح المجال أمام مسلك خاص ، مسلك الترتيب والتسلسل ، كما تؤخذ التداخلات من القرائن حيث تبقى ضمنية لتفسح المجال أمام سلوك تصنيفات (ترتيبات مجازية الخ ..) وتصبح التطابقات مبكراً منهجية (« تطبيقات » واحد الى كمية ، تطابقات عنصر بعنصر بين نسخة ونموذجها ، الخ ..) . ولا شك ان في هذه السلوك بداية منطق ولكنه ذات حدودين أساسيين : لا يوجد حتى الآن أية تعاكسية ، إذاً لا عمليات (إذا حددنا العمليات بامكانية تعاكسها) وبالتالي لا حفاظات كمية (لا يحتفظ الكل الجزأ بنفس المجموع ، الخ ..) . نحن إذاً أمام نصف منطق (بمعناه المجرد إذ انه ينقص النصف الآخر أي التعاكسات) ، غير انه يبين لعمله مفهومين أساسيين :

١ – هناك أولاً مفهوم الوظيفة او التطبيق المتسلسل (مزدوجات موجهة [couples orientés]) : مثلاً إذا سحبنا تدريجياً خيطاً مؤلفاً من قطعتين (أ) و (ب) بشكل زاوية قائمة ، فيفهم الطفل جيداً ان القطعة (ب) تزداد طولاً تبعاً لنقصان طول (أ) ولكن ليس بمقدوره الإقرار بأن الطول الكلي (أ) + (ب) يبقى ثابتاً ذلك انه لا يحكم على الأطوال إلا بطريقة ترتيبية (ترتيب نقاط الوصول : أطول = أبعد) وليس عبر تحديد المسافات .

٢ – هناك أيضاً علاقة التطابق (الخيط هو نفسه رغم التغيير من طوله) .

وتكون هذه الوظائف والتطابقات ، مهما تكن محدوديتها ، بنيات على شكل فئات جد ابتدائية (بالمعنى الذي رأيناه في الفقرة ٦) .

والمرحلة الثالثة هي مرحلة ولادة العمليات (٧ الى ١٠ سنوات) لكن بطريقة محسوسة ، إذ أنها تتعلق هذه المرة بالأشياء نفسها : – مسلسلات عملية

يتضمنها ترتيب في الإتجاهين ، ومن هنا الانتقالية la transitivité المجهولة الى الآن، أو الملحوظة من غير ضرورة ، تضيف مع تحديد كمية المضمون ، لائحة ضربية ، بناء الرقم بتركيب من السلسلة والتضمين ، والقيـــاس بتركيب من التجزئة والترتيب ، تحديد المقاييس التي كانت حتى الآن ترتيبيه ، والحفاظ على الكميات . أما البنية الشاملة التي تخص هذه العمليات المتنوعة ، فهي ما أطلقنا عليها اسم « التكتلات » وهي عبارة عن فرق ناقصة (لعدم وجود ترابط كامل) أو عن نصف شبكات semi-réseaux (لها حدود تحتية دون حدود فوقية أو العكس : راجع الفقرة ٦) وبالأخص التي تنهج تراكيبها شيئاً فشيأ دون دمج .

وعند القيام بتحليل البنيات ، يُكتشف بسهولة كيف أنها تصدر جميعها عن سابقاتها وذلك بحكم لعبة مزدوجة من تجريدات عاكسة تزودها بجميع العناصر، ومن موازنة هي مصدر التعاكسية العملية . وهنا نشهد خطوة خطوة ، تكوين بنيات صحيحة ، إذ انها منطقية ، وفي نفس الوقت جديدة بالنسبة الى البنيات التي سبقتها : وهكذا تنجم التحويلات المُؤلِّفة للبنية عن تحويلات تكوينية ولا تختلف عنها إلا بتنظيمها المتوازن .

لكن الأمر يتوقف عند هذا الحد إذ تؤدي مجموعة جديدة من التجريدات العاكسة الى بناء عمليات جديدة عن سابقاتها ودون ان نضيف شيئاً جديداً ما عدا تنظيم ثان غير انه ذات أهمية كبيرة : فمن جهة ، تصل الذات ، مُعَمِّمَةً التصانيف إلى هذا التصنيف للتصنيفات (وهي عملية من المرتبة الثـــانية) الذي يشكل الدمج la combinatoire . ومن هنـــا إذاً « مجموع الأقسام » وشبكة بول le réseau de Boole . ومن جهة أخرى ، يؤدي التنسيق بين التعاكسات التي تخص تعاكسية « تكتلات » الفئات «(أ) – (أ) = صفر »، والتقابليات التي تخص « تكتلات » الملاقات، إلى فريق الرباعية : « ت ن ب أ » الذي سبق أن عرضناه في الفقرة ٧ .

وإذا استعدنا مشكلتنا التي انطلقنا منهـــا ، نتأكد أن بين سبق التكوين المطلق للبنيات المنطقية واختراعها الاختياري أو الجائز ، يوجد مكانٌ لبنـاء يصل في آن معاً إلى حتمية نهائية وإلى وضع لازمني بصفته تعاكسي . انه يصل إلى كل ذلك عبر ضبط لذاته تفرضه متطلبات متزايدة دوماً ، (وهي متطلبات لا بد لها إلا أن تتزايد في مجرى السياق هذا إذا كان الضبط يتوخى بالفعل توازناً متحركاً وثابتاً في نفس الوقت) . ويمكن بالطبع القول بأن الذات لا تفعل سوى اللحاق ببنيات موجودة أزلياً بالقوة ، وبما أن العلوم المنطقية — الرياضية في علوم الإمكان أكثر منها علوم الواقع ، فإن بإمكانها الاكتفاء بهـذه الافلاطونية ذات الاستعمال الداخلي. أما إذا مَدّدْنا المعرفةَ المتقطعة إلى علومية فيبقى أن نتساءل اين نحدد هذا الوجود بالقوة ce virtuel . فإسنادها الى جواهر essences لا يشكل سوى قياس دائر. والبحث عنها في العالم الفيزيائي غير مقبول. وتحديدها في الحياة العضوية أمر على الأقل أخصب ولكن شرط ان نتذكر بان الجبر العام لايتعلق بتحركات البكتيريات أو الفيروسات des bacteries ou des virus . يبقى البناء نفسه ولا نعلم لماذا يُعتبر التفكير ،بان الطبيعة الاخيرة للواقع هي كونها في بناء دائم عوضاً عن افتراض كونها تراكماً لبنيات جاهزة ، تفكيراً يدعو للسخرية .

— ١٣ — **البنيات والوظائف** . توجد عقول لا تحب الذات ، فاذا ميزنا هذه الأخيرة من خلال « تجـــاربها التي عاشتها » نعترف عندئذ بأننا من بين هؤلاء . وما زال ، وللأسف ، يوجد كثير من المؤلفين يُرَكّز علماء النفس بنظرهم ومن تحديد اللفظة نفسها، على الذات التي تُفهم بانها تجربة شخصية عاشتها . ونعترف نحن اننا لا نعلم عن هؤلاء شيئاً،فاذا كان عند المحللين النفسيين psychanalystes ضبر للانكباب على حالات شخصية يُعثَر فيهـا بصورة مستمرة على نفس النزاعات ونفس العقد ، فان ذلك يعني أن المراد أيضاً هو الوصول إلى اواليات مشتركة .

ومن البديهي في حال بناء البنيات المعرفية أن لا تلعب التجربة المعاشة إلا دوراً ضعيفاً إذ أن الأشخاص لا يعون هذه البنيات ، غير اننا نجدهـــا في تصرفهم العملي وهو أمر مختلف تماماً . انهم لا يعونها بما هي بنيات شاملة Structures d'ensemble إلا حين بلوغ سن تمكنهم من التفكير في البنيات تفكيراً علمياً .

ومن البديهي أنـــه إذا وجب الاستعانة بـــأفعال الذات لتحليل التراكيب السابقة ، فـــانه يجب الاستعانة بذات معرفية Sujet épistémique هذا يعني الاستعانة بأواليات مشتركة بين جميع الاشخاص إفرادياً من نفس المستوى وبكلمة أخرى بشخص « عادي » . شخص عادي لدرجة ان احدى الاساليب الأكثر فائدة لتحليل افعاله هي بناء نماذج من الذكاء الاصطناعي على شكل معادلات او اواليـــات ، وتقديم نظرية إوالية آلية theorie cybernétique للوصول إلى الشروط الضرورية واللازمة ليس لبنيته في المجرد بل لتحقيقها الفعلي ولاشتغالها. تصبح البنيات من هذا المنظور غير قابلة لأن تـُفـْصـَل عن اشتغالها وعن وظائفها بالمعنى البيولوجي الكلمة . وقد نكتشف باننا تعدينا ، في حال ادخال الضبط الذاتي او الا تنظام الذاتي الى تحديد البنيات ، بمجموع الشروط الضرورية . غـير ان الجميع يقر بان للبنية قوانين تركيبية وهذا يعني إذا انها منضبطة . ولكن ممن او مما ؟ فاذا كان الجواب هو المنتظر، فـــان الامر عندئذ لا يتعدى الكائن الشكلي . وإذا كانت البنية « فعلية »، هذا يعني وجود ضبط عملي،فيجب إذاً ، وبما ان هذا الضبط هو ضبط مستقل، الكلام عن انتظامات ذاتية (وقد اعطت الفقره ١٢ مثالاً على ذلك) . وهكذا نعود ونقع في مسألة ضرورة وجود الاشتغال ، فاذا اجبرتنا الوقائع على نسب البنيات الى ذات ما ، فيمكننا حينئذ تحديد هذه الذات كمركز اشتغال .

لكن لم مثل هذا المركز ؟ إذا كانت البنيات موجودة وتحتوي كل منها على انتظام ذاتي ، أفلا يعود جعلُ الذات مركز اشتغال ، الى لعب مجرد دور

مسرح ، الامر الذي اخذناه على النظرية الصيغية ، وألا نكون قـــد عدنا الى مسألة البنيات المستقلة عن الذات التي يحلم بها عدد معين من البنيويين الحاليين ؟ فلو كانت البنيات تبقى على ما هي ، من البديهي عندئذ ان يصح الامر الذي نتساءل عنه . اما اذا أخذت تشكل روابط فيا بينها عن طريق الانسجام بين جواهر افـــراد منغلقة على نفسهـا ، فتعود الذات وتصبـح العضو الرابط حقوقياً وذلك فقط بمعنيين ممكنين : فاما أن تغدو الذات « بنية البنيـات » للأنا الصورية Le moi transcendantal الخـــاصة بالأوّلية (أو القبلية) l'apriorisme ، أو بشكل اسهل « الأنا » التي تعلق بنظريات التأليف السيكولوجي (راجع المؤلف الأول لبيارجـانيه «l'automalisnre psychologique» ، الذي أدت به ديناميته الى تعديه نحو معنى وظيفي ونفسي وراثي) ، وإما أن الذات لا تملك قدرة كهذه ولم تكن لديها بنيـــات قبل أن تبنيها، ويجب تمييزها، بتواضع أكبر وواقعية أكثر، بأنها لا تؤلف سوى مركزاً لاشتغال البنيات .

وحان وقت تذكيّرنا بأن الأعمال البنيوية للرياضيين قد أجابت في الواقع على هذا السؤال بشكل أدهَشَ تقاربُهُ مع التحاليل النفسية الوراثية : لا يوجد « بنية لجميع البنيات » في نفس معنى « مجموع لجميع المجموعـات » الخ ... ولا يعود سبب ذلك فقط إلى التناقض المعروف بين المذهبين بل يعود إلى أعمق من ذلك بكثير ، إلى حدود التعقيد (الحدود التي أسندناها في الفقرة ٨ إلى نسبية الأشكال والمضامين والتي نرى الآن بأنها تعود أيضاً إلى شروط التجريد العاكس وهو أمر يؤدي إلى نفس النتيجة) . وبكلام آخر ، ان التقعيد نفسه للبنيات هو بنـــاء يؤدي في المجرد إلى سُلالة للبنيات ، بينما في الملموس ، يولّد توازنها التدريجي ، سلسلات وراثية نفسية (مثلاً : من الوظيفة إلى التكتلات ، ومن هذه إلى فرق من أربع تحويلات وإلى شبكات) .

إن الوظيفة الأساسية (بالمعنى البيولوجي للكلمة) التي تؤدي إلى تكوين

البنيات هي ، في البناء المقترح في الفقرة ١٦ ، وظيفة « التمثل » ، التي أبدلناها بوظيفة « التجميع » الخاصة بالخطوط الذرّوية للنظريات غير البنيوية . والتمثل في الواقع هو مُوَلّد التصورات وبالتالي البنيات .

يمثل الجهاز العضوي ، من المنظور البيولوجي ، في كل من تفاعيله مع الأجسام أو مع مفاعيل البيئة ، يمثل الأجسامَ إلى بنياته الخاصة وذلك في نفس الوقت الذي يلائم نفسه للظروف ، ويغدو التمثل هكذا عاملَ دوام واستمرار لأشكال الجهاز العضوي. على صعيد السلوك، ينزع فعل ما إلى تكرار نفسه (تمثل مُكَرَّر) ، من هنا إذاً التصور الذي يسعى إلى إدماج الأشياء المعروفة أو الجديدة التي يحتاجها عمله (تمثل اعترافي وتمثل معمم) . والتمثل إذاً مصدر لعلاقـــات وتطابق مستمرة ، ولتطبيقات والخ ... فهو يصل ، على صعيد التصورات العامة التي تشكل البنيات . غير ان التمثل بحد ذاته ليس بنية : انه فقط مظهر وظيفي للتراكيب البنيوية ، يتدخل في كل حالة خاصة ولكنه يؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى التمثلات المتبادلة assimilations réciproques أي إلى روابط تزداد متانة وتربط البنيات ببعضها .

لا يمكننا انهاء هاتين الفقرتين ١٢ و ١٣ دون تبيان واقع ان دعم بنيوية كهذه لم يمنحه لها جميع المؤلفين ، وبالأخص في الولايات المتحدة . « برونر » ، مثلاً ، لا يؤمن بالبنيات ولا حتى بالعمليات ، لأنها تبدو له ملطخة « بالمنطقية »، ولا تعبر عن الوقائع النفسية عبر ذاتها . غير أنه يؤمن بأفعال وتدابير الذات (في المعنى الذي تفهمه نظرية القرارات la théorie des décisions) كيف إذاً ، نُسَلِّم بأن الأفعال لا يمكنها أن تستبطن نفسها نحو عمليات وبأن التدابير تبقى منعزلة عوضاً عن التنسيق فيما بينها لبلورة نظام معين ؟ وهو يبحث من جهـــة أخرى عن مصدر التطورات المعرفية للذات progrès cognitifs du sujet داخل النزاعات بين مختلف انماط الإدراك : اللغة ، والصورة ، وتصورات الفعل نفسه . لكن إذا كانت هذه النماذج لا تقدم سوى

نظرة غير كاملة ، وأحياناً مشوهة عن الحقيقة ، فكيف التوفيق فيما بينها دون العودة إما إلى نسخة عن الواقع ، وهي نسخة لا يمكن تحقيقها إذْ انهـــا غير مشاركة univoque (لنقـــل الواقع ، يجب معرفته عن غير طريق هذه النسخة) وإما بالضبط إلى بنيات هي تنسيق لجميع الأدوات الجاهزة ؟ لكن ، ألن تلعب اللغة نفسها بالنهاية هذا الدور المُتَمَيِّز والبنائي . وألن تـُدْعى بنيوية « شومسكي » لتسهيل المسائل التي ناقشناها في هذا الفصل ؟ هذا ما يجب علينا تفحصه .

٥ البنيوية اللغوية

١٤ – بنيوية النظام اللغوي المتزامن : إن اللغة مؤسسة جماعية ذات قواعد تفرض نفسها على الافراد وتتناقل بطريقة جبرية من جيل الى آخر منذ أن كان الناس،تشتق اشكالها الخاصة من اشكال سابقة تنحدر هي نفسها من اشكال أكثر بدائية وهلم جرا دون توقف منذ أصل وحيد أو أصول أوّلية متعددة . من جهة اخرى ، تدل كل كلمة على مفهوم يشكل معناها ، ويذهب مناهضي العقلانية الأكثر عزماً،مثل بلو مفيلد، الى حد الدفاع عن ان طبيعة هذه المفاهيم تقتصر كلياً على هذا المعنى للكلمات (بقول بلو مفيلد بتحديد أكثر أن لا وجود لهذه المفاهيم : انها لا شيء سوى معنى الكلمات ، مما يشكل بحد ذاته طريقة لمنحها وجوداً وتحديداً) . وأكثر من ذلك ، يتألف علم النحو la syntaxe وعلم الدلالة la sémantique من مجموعة قواعد ، على التفكر الفردي أن يخضع لها بنفسه عندما يريد ان يعبر عن شيء ما إما الى الغير وإما داخلياً .

وبالاختصار،تشكل اللغة كونها مستقلة عن القرارات الفردية ،وحاملة تقاليد ألوف السنين وبالاضافة الى كونها أداة ضرورية لتفكير اي واحد،تشكل فئة ذات امتياز في الحقائق الانسانية ، ومن هنا فالتفكير بانها مصدر لبنيات مهمة من ناحية عمرها بشكل خاص (انها تفوق عمر العلوم بكثير) ومن ناحية شموليتها وقدرتها ، هو امر طبيعي جداً.قبل ان نأتي الى بنيات اللغة كما يراها اللغويون، فلنذكر بان مدرسة علومية بكاملها،الوضعية المنطقية،تعتبر ان المنطق والرياضيات يؤلفان علم نحو وعلم دلالة عموميين بحيث لا تصبح ، من هذا المنظور، البنيات

التي شرحناها في فصلنا الثاني سوى بنيات لغوية . بينما اعتبرناهـا نحن ، على العكس ، نتاجاً لتركيب وتجريدات عاكسة انطلاقاً من التنسيقات العامـة للفعل : وقد توجد من هذا المنظور الثاني ، تنسيقات عامة كهذه ، تنطبق على كل شيء ، في التنسيقات بين أعمال الاتصال والتبادل وبالتالي توجد في اللغة . في هذه الحالة، لا تصبح البنيات اللغوية أقل جدارة بالاهتمام، لكن تختلف علاقاتها مع البنيات المتعلقة بالمدلول signifié . ومهما يكن الحل ، ففي مسألة العلاقة بين البنيات اللغوية والبنيات المنطقية مشكلة أساسية للبنيوية عامة .

ونشأت البنيوية اللغوية حين بيّنَ فردينان دي سوسور بأن سياق اللغة لا يقتصر على التطورية diachronic وبأن تاريخ الكلمة مثلاً لا يعرض معناهـا الحالي . ويكمن السبب في وجود الـ « نظام » ، (لم يكن سوسور يستعمل لفظة بنية) بالإضافة إلى وجود التاريخ، وفي أن نظاماً كهذا يرتكز على قوانين توازن تؤثر على عناصره وترتهن في كل حقبة من التاريخ بالنظام اللغوي المتزامن Synchronic : بالفعـل ، فالعلاقة الأساسية التي تدخل في نطاق اللغة هي عبارة عن تطابق بين الشارة Signe والمعنى . ومن الطبيعي أن تؤلف مجموعة المعاني نظاماً يرتكز على قاعدة من التمييزات والمقابلات إذ أن هذه المعـاني تتعلق ببعضها ، كما تؤلف نظاماً متزامناً إذ أن هذه العلاقات مترابطة .

وإذا كانت البنيوية الأولية متزامنة أساساً (في مقابل النظرة التطورية لقواعد اللغة المقارنة la grammaire comparée في القرن التاسع عشر ، وفي مقابل المنظور التحويلي لبنيوية هاريس وشومسكي الحديثة)،فان ذلك يعود إلى ثلاثة أسباب يجب وزنها بتأنٍ نظراً لعدد المؤلفين الذين ، رغم كونهم ليسوا لغويين ، قد أخذوا من التأثيرات السوسورية فكرة استقلالية البنيـات عن التاريخ . يرتسم السبب الأول طابعاً عاماً جداً، وهو يتعلق بالاستقلالية النسبية لقوانين التوازن بالنسبة لقوانين التطور : في هذا الصدد ، تأثر سوسور في جزء من إلهامه، بالاقتصاد الذي كان في عصره يشدد خاصة على الأولى (« باريتو » بعد

« ولراس »، وحيث يمكن في الواقع للأزمات بأن تؤدي إلى تعديل كامل للقيم المستقلة عن تاريخها (إن سعر التبغ سنة ١٩٦٨ مرهون بتفاعل الأسواق الحالية وليس مرهوناً بما كان عليه سنة ١٩٣٩ أو ١٩١٤) . كان يمكن من جهة أخرى الاطلاع بهذه الاعتبارات من البيولوجيا نفسها، إذ بإمكان العضو تغيير وظيفته أو يمكن للوظيفة أن تمارس بواسطة أعضاء مختلفة .

أما ثاني هذه الأسباب (وربما كان باستطاعته أن يكون الأول) ، فهو إرادة التخلص من العناصر الغريبة على علم اللغة ، والاكتفاء بميزات النظام اللازمة .

أما السبب الثالث للميزة التزامنية للبنيوية السوسورية ، فتتعلق بوضع خاص بعلم، اللغة شدد عليه سوسور في اندفاع منهجي تماماً: لا تحتوي الشارة الشفوية، لكونها اصطلاحية ، على علاقة جوهرية ، وبالتالي ثابتة ، مع معناها : انه المبدأ الذي يعتبر بأنه ليس في ميزات الدال اللفظية ما يشير إلى قيمة أو مضمون مدلوله ، وقد وضع « جكوبسون » حديثاً موضع الشك ، هذا التأكيد على تحكم الشارة الذي كان « جسبرسن » قد خفف منه . لكن « سوسور » كان قد أجاب سلفاً على هذه الاعتراضات حين ميّز بنفسه بين « التحكم النسبي » و « التحكم الكلي » . ومن المؤكد في الخطوط العريضة ، ان العلاقات التي تربط الكلمة بالمفهوم الذي تدل عليه ، أقل من العلاقات التي تربط هذا المفهوم بتحديده أو مضمونه : بالرغم من وجود رمزية مصبغة ترافق أحياناً الشارة اللفظية ، (وذلك في المعنى السوسوري لعلاقة تسببية أو تشابهية بين الرامز symbolisant والمرموز إليه symbolisé ، وبالرغم من أن الكلمة لا تبدو مطلقاً اختيارية بالنسبة للمتكلم نفسه، كما ذكّر بذلك « بنفنست »، ويعتقد الأطفال بأن الأشياء تملك أسماءها مادياً : وكأن هذا الجبل كان يملك دائماً اسمه قبل أن يُسَميه النـــاس وهم ينظرون إليه) ، بالرغم من ذلك ، فإن تعدد اللغات نفسه يؤكد بديهياً هذه الميزة الاصطلاحية للشارة اللفظية . زد على ذلك أن الشارة هي دوماً شارة اجتماعية (انها عبارة عن اصطلاحات صريحة أو ضمنية يرجع سببهـــا

للاستعمال) . بينما يمكن للرمز أن يكون من أصل فردي ، كما هي الحال في اللعبة الرمزية أو في الحلم .

يبدو واضحاً ، إذا كان الأمر كذلك ، أن العلاقـــات بين النظام المتزامن والنظام التطوري ، لا يمكن إلا وأن تختلف في علم اللغة عماهي عليه في مجالات أخرى، حيث لا تشكل البنية، بنية طرق التعبير بل بنية المدلولات نفسها (في مقابل الدلائل) ، أي بنية وقائع تحتوي في ذاتها على قيمتها وقدرتها المعيارية Leur pouvoir normatif . أما خاصية المعيار ، فهي كونه لازمـــاً أي كونه يحتفظ ويحفظ قيمته بفضل هذا اللزوم نفسه . أما توازنه الحالي فيرتهن بتاريخه إذ" ان هذه الميزة للتطور هي بالتجديد أن تـُوَجـّه نحو هكذا توازن[1] (راجع الفقرة ١٢) ، بينما يمكن لتاريخ كلمة ما أن يكون تسلسلاً لتغييرات في المعاني، دون أي رابط بينها سوى ضرورة الجواب علىحاجات تعبيرية للأنظمة المتزامنة المتتالية، حيث تشكل الكلمة جزءاً منهـــا . وتمثل البنيات المعيارية والبنيات الاصطلاحية بما يخص بعلاقات النظـــام المتزامن بالنظام التطوري ، مركزين متقابلين جذرياً . أما بالنسبة لبنيات القيم les stuctures de valeurs ، كما في الاقتصاد ، فانها تمثل موقعاً وسطياً يرتبط بالنظام التطوري من ناحية تطور أدوات الانتاج ، وخاصة بالنظام المتزامن من ناحية التفاعلية نفسها للقيم .

بينما كان بلومفيلد ومساعدوه يطورون علماً للغة وصفياً وتصنيفياً،ومرتكزاً خاصة على أساليب تقسيمية Méthodes distributionnelles ، ومحددين بنيوية النظام المتزامن السوسورية ، وجد هذا أشكالاً جديدة في دراسته علم اللفظ الكلامي (la phonologie) . وكانت « المقابلات » (أو الانقسامات الثنائية في داخل فئة) تخص إلى الآن العلاقات بين الدلائل والمدلولات ، في حين

(١) توازن يرتكز إذاً على تعاكسية متزايدة ، بينما الذي يقصد أكثر في عـــلم اللغة هو المقابلات oppositions دون استبعاد إواليات ضبط ذاتي جماعي غير معروف جيداً في الوقت الحاضر .

أنه شُيِّدَ مع « تروبتزكوي » نظام مقابلات لفظية يُحَدِّدُ اللفظ Phonème تبعاً لها، وما زالت تضج هذه البنيوية مع نظام العناصر التفاضلية لجكوبسون. ثم أصبحت البنية ، مع « هجلمسلف » ، يليه « ف . بروندال » و « توجيي » (دون التعرض للمجالات الدلالية لـ « ج. ترير »، أصبحت « كيان خاص ذات ارتباطات داخلية » وإذا كان « هناك نظام وراء كل دعوى » ، فالسياق ليس سوى الممر من نظام إلى آخر ، وهو ممر غير مكوِّن ولكنه عائد للرسوخ المكتسبة من النظام الثاني بمقتضى التفاعلات المتزامنة كلياً . والمفردات الغامضة التي يستعملها « هجلمسلف » تجعل نقاش أفكاره صعباً ، لكن ، يجدر الملاحظة بما يخص العلاقات بين اللغة والمنطق التي سنعود ونتكلم عنها (في الفقرة ١٦) ، أنه أقام فرضية نوع من Sublogique المصدر المشترك لهذه العلاقات . لكن بنيوته ليست في الأساس أقل ثباتاً ، فهو يشدد على «التبعيات» dépendance وليس على التحويلات .

١٥ - البنيوية التحويلية والعلاقات بين تطور الكائن الفرد ontogenèse والنسالة phylogenèse .

من الاهمية بمكان الملاحظة بان شكل البنيوية اللغوية بدأ يأخذ منذ «ز. هاريس» وخاصة مع شومسكي ، اتجاهاً توليدياً واضحاً على صعيد بنية علم النحو رغم الأسباب القوية التي تربط البنيوية اللغوية باعتبارات النظام المتزامن. ويرافق هذا البحث في التوليد اللغوي ، كما وجب ، سعي نحو تقعيد يتناول التحويلات التي تملك فوق ذلك ، ولنسجّل ذلك ، قدرة معيارية للفرز تستبعد بعض البنيات ذات التركيب السيء . تصل البنية اللغوية من خلال منظور كهذا ، إلى صف البنيات الأكثر عموماً . تصل إلى هذا الصف مع قوانين الجملات التي ليست قوانين وصفية وثابتة بل قوانين تحويلات ، مع ضبطها الذاتي العائد لميزات هذا التركيب .

إن دوافع هذا التغيير الملحوظ للمنظور هي على نوعين ، ويهمنا تحليله في

سبيل دراسة مقارنة للبنيويات (وليس فقط للبنيات نفسها) لأن كل منها يتألف من وضع يمكن وصفه دون مبالغة بأنه « متداخل في التعاليم » « interdisciplinaire » . يتعلق النوع الاول بملاحظة الجانب الخلّاق من اللغة ، وقد سبق « لماري » و« م. هال » أن قاما بهذه الملاحظة. والمقصود هو الجانب الذي يظهر في الغالب على صعيد الكلام (في مقابل اللغة) اي الذي يظهر في مجال نفسي — لغوي psycholinguistique . وبالفعل ، فبعد سنين طويلة من فقدان علم اللغة ثقته بعلم النفس ، جاء العلم النفسي — اللغوي ليعيد بناء الجسور ، وهذا امر يهم شومسكي مباشرة : « في صميم اهتمامات البحث الحالي نجد ما يمكن تسميته على صعيد الاستعمال الجاري بالجانب الخلّاق في اللغة. يجري كل شيء كما لو أن الشخص المتكلم ، يخترع نوعاً ما لغته كلما عبّر ، أو يعيد اكتشافها فور سماعها حوله وكأنه قد دمج مع مادته الفكرية الخاصة نظاماً متماسكاً من القواعد أو قانوناً ووراثياً (ونشدد على هذا) ، يحدد بدوره النفسي الدلالي لمجموعة غير محدودة من الجمل الحقيقية المُعَبَّرة أو المسموعة . ويجري كل شيء ، بكلام آخر ، كما لو انه يتصرف بقواعد توليدية للغته الخاصة[1] .

إما الدافع الثاني الذي يستلهم شومسكي في بحثه عن قوانين تحويلات هذه « القواعد التوليدية » فيظهر أكثر تناقضاً لانه يبدو متجهاً للوهلة الأولى نحو ثباتية fixisme جذرية ، ليس بالضبط نحو مفاهيم المصدر والتحويل : ان الفكرة القائلة بان قواعد اللغة تغرز جذورها في العقل وفي العقل القطري. ويغوص شومسكي بعيداً في هذه الطريق حتى يصل في كتاب له جديد الى اعتبار نفسه من اتباع « أرنو » و « لنسلو » « la grammaire générale et raisonnée de Port - Royal وحتى لديكارت نفسه في تحاليله العلاقات بين اللغة والفكر[2] .

---

(١) N . Chomsky : De quelques constantes de la théorie linguistique Diogène , 1965 (No . 51) P . 14 .

(٢) المقصود عن ديكارت أكثر من الفكر بل الروح أو النفس « Esprit » l' .
المترجم

وبالفعل ، تُستَنْتَق قواعد التحويلات التي تسمح ببناء سلسلات من بيانات مشتقة ، من بيانات مركزية ثابتة . وإليها يرجع شومسكي ويربطهـــا بالمنطق (كالعلاقة بين الذات والمحمول Prédicat . وهذا لا يمنع الموقف الجديد (الذي يقول عنه شومسكي : « انه يعود بنا إلى تقليد فكري قديم أكثر مما يؤلف ... تجديداً جذرياً في مجاليَ علم اللغة وعلم النفس)»[1] أن يشكل اختلافاً كلياً للمعنى بالنسبة للوضعية المنطقية : فبينما كان يريد هذا الأخير ، ويليه « بلومفيلد » بحماس ، أن يرجع بالرياضيات إلى علم اللغة ، وبالحياة الذهنية كلها إلى الكلام ، قـــام حينئذ علم اللغة يقول باشتقاق القواعد من المنطق واللغة ، في حيـــاة ذهنية يوجهها العقل ...

ويتضح جيداً هذا الاختلاف للمعنى على الصعيد المنهجي . ففي مقال شيق يشكل ، وراء ما يحتويه من مجاملة وحِسّ عادل ، نقداً لاذعاً للوضعية المنطقية وللأساليب اللغوية التي تنبع عنها[2] ، حلـّلَ « أ . باخ » المسلمات الافتراضية العلومية في بنيوية شومسكي تحليلاً ثاقباً .

ان ما يميز الجهد الجدير بالملاحظة في علم اللغة الأميركية من سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٥٧ حسب « باخ » هو الأسلوب الباكوني: التراكم الاستقرائي للوقائع ، هرمية مستويات غير متجانسة ، من المجالات (علم اللفظة ، علم النحو ، الخ...) التي ارتبطت نوعاً ما بعد فوات الأوان ، فقدان الثقة بالفرضيات ولكي نقول كل شيء عن الأفكار ، بحث عن « الأسس » في البيانات « الشكلية » الخ ... بينما يفترض على العكس أسلوب شومسكي ، الذي وضعه باخ تحت رئاسة « كبلر » بالمقابل مع أسلوب «باكون» ، التحقق من عدم وجود أُسس كهذه ، ومن حاجة العلم إلى الفرضيات (وحتى إلى الفرضيات التي استطاع « ك. بوبر » أن يقول بأن

---

(١) المقال نفسه ص ٢١ .

(٢) Emmon Bach : Linguistique Stucturelle et philosophie des Sciences. Diogène, 1965 (No. 51), p 117-136 .

أفضلها هو أقلها احتمالاً ، لكن التي تسمح ، لإمكانية تزويرها ، باستبعاد أكبر عدد من النتائج . نستنتج من ذلك إذاً ، انه بدل البحث عن الأسلوب الخاص بالوصول استقرائياً ، أي خطوة خطوة ، إلى خصائص اللغات المعينة وإلى اللغة عامة ، يتساءل شومسكي عما هي المسلمات الضرورية واللازمة لنظرية في علم قواعد اللغة ، وذلك بغية تحديد البنية المشتركة للغات وكذلك بغية تفريقها حسب اللغات الخصوصية المتنوعة . وتوصل شومسكي في الواقع إلى مفهومه للبنيوية اللغوية بفعل مزيج من التعقيد المنطقي - الرياضي يتعلق بالـ algorithmes ، والوظائف التي بالإمكان تكرارها والقوانين [شيفرة — أو لغز codes] ، كما يتعلق في الغالب أيضاً بالبنية الأولية للفكرة الواحدة Monoïde المرتكزة على التسلسل والترابطات العملية) ، وعلم اللغة العام (يتعلق في الغالب بعلم النحو لأنه عنصر خلاق)، والعلم النفسي اللغوي (المعرفة الضمنية للمتكلم عن لغته الخاصة) .

وبكلمة ، تُقَدّم البنيوية على الشكل التالي: يمكن بادىء ذي بدء للحصول تكرارياً على مجموعة قواعد كتابية (écriture) على كل شكل أ — ي حيث ترمز أ إلى الفئات (الجمل ، الخ ..) و ي إلى واحد أو عدة رموز (رموز جديدة لفئات أو رموز ناهية) . فإذا طبقنا عمليات التحويلات على سلسلات الرموز غير الناهية نحصل على بيانات مشتقة ، ويؤلف مجموع هذه التحويلات قواعد اللغة التوليدية ، قواعد لغوية باستطاعتها قريباً إنشاء روابط بين دلالات اللفظة واللفظ في تراكيب ممكنة لا متناهية[١] .

يشكل هذا الإجراء البنيوي الصحيح أداة ممتازة للمقارنة، إذ انه يستخلص نظاماً متماسكاً من التحويلات (مؤلّفاً شبكات معقدة تقريباً) ولكنه ينطوي على فائدة تطبيقه على الجدارة الفردية ، بما هي قواعد لغوية باطنية للشخص المتكلم أو المُصْغي ، وتطبيقه أيضاً على اللغة كمؤسسة . وقد أعاد بعض العلماء

---

(١) Chomsky, 1965, p 21 .

النفسيين اللغويين مثل «س. إرفن» و«و. ميلر» و«ر. براون» و« إ. بللوجي» تكوين قواعد لغة الأطفال الغريبة والبعيدة كثيراً عن قواعد لغة الكبار .

وإن مثل هذه التطبيقات الواثبة للبنيوية الشومسكية لجديرة بالملاحظة: لأنها أولاً تخفف من حدة التناقض الذي أراد أن يُقيمه ، منذ « دويت وثني » في سنة ١٨٦٧ و ١٨٧٤ دركايم ودي سوسور (الذي تأثر من الاثنين السابقين) ، بين اللغة كمؤسسة اجتماعية والكلام، كما لو أنه لم يكن على هذه وعلى كل الفكر الفردي معها إلا أن تَتَقَوْلب في النطاقات الجماعية . ثم لأن هذا الاعتبار للدور الذي يلعبه تطور الكائن الفرد ، وحتى إذا كان هذا التطور يدخل في نطاقات النسالة (phylogenèse) أو التطور الإجتماعي . ولكن في نطاقات تَعدّل فيها دوما بالمقابل[1] ، لأنه إذاً يوافق ميولاً يمكن لنا التماسها حالياً في تعاليم مختلفة جداً كالبيولوجيا كما يفهمها « ودينغتون »، وكالمعلومية الوراثية في ظواهرها المتعددة، هذا إذا سمحوا لنا بهذه الإحالة .

يلاحظ اليوم الربط الممكن بين تطور الكائن الفرد والبنيويـــة اللغوية في مجالات كان يصعب في الماضي تصوره فيها ونقصد: على صعيد الانفعال الشعوري l'affectivité والرمزية اللاواعية .وقد اهتم « ش بالي » وهذا صحيح، منذ زمن، بما سماه « اللغة الانفعالية الشعورية le langage affectif ووظيفتها تقويـــة التعبيرية l'expressivité التي تُبْتَذل باستمرار في اللغة الدارجة لكن « دراسة الاساليب» la stylistique عند بالي،كانت تبين في هذه اللغة الانفعالية الشعورية قبل كل شيء، تفكيك البنيات الاعتيادية للغة . ويمكن بالمقابل التساؤل إذا كان للانفعال الشعوري لغته الخاصة وهي فرضية دافع عنها « فرويد » نهائياً وذلك تحت تأثير « بلوير » « وجوتل » ، بعد ان اراد تفسير الرمزية بلعبة القناعات، le jeu de déguisements . غير ان جانك كان يرى في الرموز نماذج مثالية

---

(١) لو كان الكبار يعيشون معدل ٣٠٠ سنة والمسافة بين الاجيال فسيحة ، فهـل تتشابه اللغات ، وحتى الأكثر مدنية ، بما هي عليه حالياً ؟ .

وراثية ، بينما فتش فرويد بكل ادراك عن مصدرهـا في تطور الكائن الفرد . ونبدو هنـا في مجال لا علاقة مباشرة له بعلم اللغة ، رغم كونه مهماً للوظيفـة الرمزية ولعلم دلالة الامراض عامة la sémiologie . « جاك لاكان » هو أول من تَنَبَّهَ حديثاً إلى ضرورة مرور أي تحليل نفسي عبر اللغة : انهـا لغة المُحَلَّل طبعاً غير انه بطبيعة الحال لا يتكلم كثيراً ، ولغة المُحَلِّل خاصة. إذ أن أساس السياق التحليلي النفسي يفترض بالنسبة للشخص أن تنقل رمزيته الفردية اللاواعية إلى لغة اجتماعية وواعية . مركزاً على هذه الفكرة الجديدة ، استلهم « لاكان » من البنيوية اللغوية ومن نماذج رياضية معروفة ، في محاولة لاستخراج بنيات تحويلات جديدة مخاطراً بإدخال لا عقلانية اللاوعي والرموز التي لا يُعَبَّرُ عنها ، في قالب من لُغة تهدف طبيعياً إلى التعبير عن الشيء الذي يمكن التعبير عنه . وفي هذا هنا محاولة ، يكفي مشروعها نفسه ، لأن يكون ذا فائدة أكيدة . ولكنه من الصعب تحليل نتائجها قبل أن يُوَضِّحَهـا « غير المدربين » les non-initiés حسب المعنى الذي يعطيه جماعة المحللين لهـذه اللفظة الأخيرة (لأنه لو كان من البديهي وجوب التَّدَرُّب بمعنى معرفة الوقائع التي تتحدث عنها ، فلا يمكن بلوغ الحقيقة كما هي إلا بعد إبعاد التأثيرات التي أولدتها) .

١٦ - التكوين الاجتماعي ، الفطرية أو موازنة البنيات اللغوية .

يدفع هذا المزيج ، ذات الاهمية ، من التدريبية génélisme[1] والديكارتية ، الذي يميز شومسكي ، يدفع بهذا الأخير للدفاع عن رأي غير منتظر إيجاده عند لغوي معاصر . ويربط هذا الرأي « بالأفكار الفطرية » التي تكلم ديكارت عنها وبالوراثة التي يجب عليها بنظر بعض البيولوجيين ، انتظار تفسير كل الحيـاة الذهنية تقريباً. « إذا صح أن قواعد اللغات الطبيعية ليست فقط معقدة ومجردة بل ومحدودة أيضاً بتنوعاتها خاصة على مستوى أقصى تجريد ، فيجدر أن تثار

(١) نظرية نفسية تقول بأن إدراك الابعاد هو نتيجة لتدريب الحواس . - المترجم -

من جديد مسألة ما إذا كانت هذه القواعد هي حقيقة من ثمرة الثقافة ، كما درج الاعتقاد . فقد تكون اكتسابٌ لمجرد تفريقٍ لتصور ثابت فطري (تشديدنا) عوضاً عن اكتساب تدريجي لمعطيات وتعاقبات وتسلسلات وترابطات جديدة. والقليل الذي نعرفه عن بنية اللغة بشكل عـــام ، يجعلنا نعتقد بأن الفرضية العقلانية تملك أكثر الفرص ، لأن تبرز في خطوطهـــا العريضة كفرضية خصبة وصحيحة أساساً » (المقال نفسه ص ٢٠ — ٢١) .

وها نحن أمام الفرضية الكامنة عند أكثر المؤلفين الذين تدفع بهم ميولهم البنيوية إلى الحـــذر من نظريات « التكوين النفسي la psychogenèse » ونظريات « الكون التاريخي historicisme » والذين في نفس الوقت لا يريدون الرفع ببنياتهم إلى جواهر صورية essences transcendantales . ويتنوع الموقف أكثر عند شومسكي الذي يملك الحس الاختباري بقدر مـا يملك حس التعقيد ، إذْ تتميز القواعد اللغوية الخاصة حسب سياقات التحويل التي تدخل الطور الفعلي خلال مجرى التطور نفسه : أما الذي يبقى فطرياً ، فهو النواة أو « الشكل الثابت Shèma fixe» وأيضاً البنية الشكلية العامة للتحويلات ، بينما قد تتعلق منوعاتها بهذا الطابع الخلاق الذي في اللغة ويُشدد عليه مع «هاريس». بيد اننا أمام مسألة أساسية بما يخص هذا « الشكل الثابت الفطري » ، ومهم أن نتفحص ظواهره المتنوعة .

هناك أولاً المسألة البيولوجية . ولا يكفي التحقق من كون الصفة وراثية ، بل يبقى أن نبلور كيفية تكوينها. إن مسألة فهم كيفية ظهور المراكز الدماغية للغة في مجرى الـ hominisation هي مسألة مزعجة جداً : التبدل والانتقاء الطبيعي حلولٌ ضعيفة ، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بحركة ولدت أساساً من الاتصال بين الأفراد .

لكن إذا كانت المُوَرِّثة (gènes) المسؤولة عن اللغة ترى نفسها مكلفة بنقل ، وراثياً ، ليس فقط المقدرة على اكتساب لغة مُبيَّنة من الخارج،بل أيضاً

الشكل المكوّن الثابت من حيث تنهج اللغة نفسها ، فان المشكلة تصبح عندئذ أكثر تعقيداً . وإذا كانت هـــذه النواة التكوينية فضلاً عن ذلك مشحنة « بالعقل » ، وإذا كان يجب إذاً بالاضافة إلى ذلك القبول بوراثة هذه، فلا يبقى سوى جوابـــين معقولين (لأن ، وللتشدد على ذلك ، الكلام عن التبدلات والانتقاء فقط دون أية معطيات تدعمها هو ، كما يقول « برتلنفي » كاللجوء إلى: « moulin à prières thibétain »)، فإما سبق التكوين على الدوام (لكن لم إذاً انتظار الإنسان لكي يظهر فيما أن الشنبنزي أو النحلة خفيفي الدم ؟) ، وإما تفاعلات مع البيئة بشكل يصبح الانتقاء يتعلق بالارتكاسات ذي الطبع الوراثي بما هي أجوبة من Génome على الدوافع الخارجية .

لكن ، مـــا ان نبلغ صعيد تكوّن الكائن الفرد حيث يصبح تفصيل الاكتسابات والتحويلات حقيقياً ، حتى نجد أنفسنا أمام وقائع تختلف عن افتراضات شومسكي بالنسبة لأهمية أو امتداد نقاط الانطلاق الوراثية ، رغم انها تكشف عن علاقات أكيدة معها (راجع الفقرات ١٢ و١٣) . والسبب يعود بدون شك وببساطة إلى أنه يوجـد وحيث لا يرى شومسكي سوى تخيير بين أمرين — اما شكل فطري يفرض نفسه ضرورة ، وإما اكتسابات خارجية وبالأخص ثقـــافية ، لكن متنوعة ولا تفسر الميزة المحدودة والحتمية للشكل المقصود — فإنه يوجد في الحقيقة ثلاث حلول للتخيير وليس اثنان فقط : هناك طبعاً الوراثة أو الاكتسابات الخارجية ، ولكن أيضاً سياقات الموازنة الداخلية أو الانتظام الذاتي ، غير ان هذه السياقات توصل كالوراثة إلى نتائج حتمية وحتى من نواحٍ أكثر حتمية ، لأن الوراثة تتنوع أكثر في مضامينها من القوانين العامة للتنظيم معبرة عن الضبط الذاتي لكل تصرف . وبالأخص أن الوراثة لا تتعلق سوى بمضامين منقولة ، كما هي أو غير منقولة ، بينما يفرض الانتظام الذاتي وجهة منسجمة مع تركيب يصبح حتمياً ، وبالضبط لكونه مُوَجَّه .

يدافع عن هذا التفسير في حالة البنيات اللغوية نوعين من الاعتبارات يحملان

من فرضية الفطرية غير نافعة في نفس الوقت الذي يحافظون فيه على مجمل نظام شومسكي التفسيري : انهـــا من جهة أمل تحقيق إوالي آلي réalisation cybernétique للقواعد اللغوية التحويلية ، ومن جهة أخرى تحليل التكوين النفسي للشروط المسبقة التي تجعل ممكنة اكتسابات اللغة خلال السنة الثانية من النمو .

يجب بما يتعلق بالنقطة الأولى ، أن نذكر أعمال س. سومجانـ في أكاديمية موسكو للعلوم الذي يحاول إدراج التحويلات القائمة في « مجال للتحويلات » على أساس « relateurs » يزودون بـ« algorithmes » التركيب الأوتوماتي[١] . ويمكن أن نأمل كثيراً من تحاليل كهذه تستخلص الشروط الضرورية واللازمة للنظام أو تبين على العكس حدوده . غير أنه يمكن لهذه أيضاً أن تكون مفيدة لاشكالتنا لأنه لو صح ،كما يفترض «بار ـ هيلل»[٢] أن النظم الشكلية التي تنطبق على قواعد اللغة لا تحتوي على إجراء حل كامل ، لكانت عندئذ فرضت النتائج التي تسببها حدود التعقيد (راجع الفقرة ٨) على صعيـد المنطق ، ضرورة وجـود هنا وهناك ، بنـــاء على درجات متتالية ولاستبعدت مفهوم نقطة الانطلاق التي تحتوي على كل شيء مسبقاً .

أما من حيث معطيات الاختيار وليس من حيث التعقيد أو الآلات الإوالية ، التي تحوّل الطابع ، فيبدو أن بنـــائية كهذه هي التي تفرض واقع ظهور اللغة متأخرة نسبياً خلال السنة الثانية من النمو : لم ، بالفعل ، هذا المستوى المحدد من النمو وليس مستوىً أبكر ؟ وخلافاً لشروح السهلة حول التّكـَيُّف التي لو كانت صحيحة لفرضت اكتساب اللغة منذ الشهر الثاني ، يتبين ان اللغة تفترض تكويناً مسبقاً للذكاء الحسي نفسه ممـــا يبرر أفكار شومسكي حول ضرورة وجود أساس حليف للعقل .

---

(١) Diogène, 1965, (No. 51) p 151 .

(٢) Decision procedure in naturel langage, Logique et analyse . 1959

لكن هذا الذكاء نفسه بعيد عن أن يتكون مسبقاً منذ البداية ، ويمكن أن نتابع خطوة خطوة كيف انـــه ينتج عن تنسيق تدريجي لتصورات التمثل . وفرضت الفكرة التي سنعود ونتناول أعمالها حالاً ، على « ه . سنكلر » البحث عن مصدر « الوحدة الفكرية » لشومسكي في سياقات تكرار وترتيبات وصلات ترابطية (بالمعنى المنطقي للكلمة) خاصة بهـــذا التنسيق للتصورات الحسية . إذا ثبتت الفرضية يكون لدينا تفسير ممكن للبنيات اللغوية الأساسية موفرين بذلك « فطرية » مرهقة للغاية .

١٧ – البنيات اللغويـــة والبنيات المنطقية ، بامكاننا العودة الآن إلى مشكلتنا التي انطلقنا منها والتي تبقى احدى المشاكل الأكثر جدالاً في البنيوية أو في العلومية بشكل عام وحيث يجب على حلولهـــا الجدية أن ترافق شتى انواع الاحتياطات.حتى أن لغوياً سوفياتياً كسوبجان ويُعلن، في مركز ثقافة حيث، ظهر منذ بضعة سنوات ، بـأن المفهوم البڤلوفي le concept pavlovien للغة كنظام ثان للتعبير قد حل جميع المشاكل ، يُعلن في موضوع العلاقات بين اللغة والفكر بانها تشكل «أحدى أكثر المشاكل القيمة والشائكة التي تطرح حالياً». زد على ذلك أن هدفنا ليس عرض المشكلة العامة في بعض الأسطر بل هو فقط الاشارة من منظور البنيوية وحده ،، إلى جوانب المشكلة على ضوء التقدم الذي تحقق في دراسة البنيات اللغوية .

ينبغي مع ذلك أن نبدأ بتذكير شيئين مهمين : أولهما هو انـــا نعلم منذ سوسور وكثيرين غيره بـــان الشارات الشفهية لا تشكل إلا احدى جوانب الوظيفة الرمزية وبان اللغوية ليست ، قانوناً ، سوى قطاعاً مهماً بوجه خاص ، لكنه محدود بهذا الفرع الذي دعا سوسور بأمانيه إلى تأسيسه تحت اسم « علم دلالة الامراض العام » « la sémiologie » وتشمل الوظيفة الرمزية ، بالاضافة إلى اللغة ، على التقليد بأشكاله التصويرية (تقليد مؤخر الخ ... يظهر في آخر المرحلة الحسية مُؤَمّناً بدون شك ، الربط بين الحسي والتصويري) ، والإيماء

الإشاري la mimique gestuelle واللعبة الرمزية ، والصورة العقلية الخ ...
وغالباً ما ينسى بـــان تطور العرض والفكر (دون الكلام عن البنيات المحض منطقية) يكون مرتبط بهذه الوظيفة الرمزية بشكل عام وليس باللغة وحدها، وعلى هذا ، أن الاولاد الصمم - بكم الذي لا يشكون من خلل دماغي ، يملكون لعبة الرمزية (أو الخيال) ولغة الاشارات الخ ... (خلافاً لحالات الصمم بكم المرتبطة بالخلل الدماغي والتي لا تملك الوظيفة الرمزية) . وإذا درسنا عملياتهم المنطقية الملموسة (السلسلات والتصنيفات والحفاظات ، الخ ...) كما فعل «ب . أوليرون » ، « هـ . فورت »[1] « م . فنسانت » و « ق . أفولتر » الخ ... نشهد تطور هذه البنيات المنطقية مع بعض التأخر احياناً لكنه أقل بروزاً مما هو عند العميان الصغار منذ ولادتهم ، والذين درسهم « ي . هتول » . واللغة عند هؤلاء الاخرين وهي عادية ، لاتعوض عن نقص في تكيف التصورات الحسية إلا متأخرة . بينما غياب اللغة ، عند الصمم بـــكم ، لا يستبعد البنيات العملية ، ويمكن ارجاع التأخير ، بمعدل سنة أو سنتين عن المجرى الطبيعي ، الى غياب انعاش اجتماعي .

أمـــا الشيء الثاني الذي يجب ان نتذكره فهو أن الذكاء يشبق اللغة ، ليس فقط من ناحية تطور الكائن الفرد كما رأينــــا في الفقرة ١٦ ، وكما أكــده مثــل الصم بكم بـل ايضاً من ناحية تكون النسالة كما تثبته الاعمال المتعددة جداً حول الذكاء عند القرود المتفوقة . غـــير ان الذكاء الحسي يتألف قبلاً من عدد من البنيات تتعلق بالتنسيقات العامة للفعل action (التسلسل ، دمج التصورات ، التطابقات الخ . .) ومن المستبعد اذاً اسناده الى اللغة .

وعلى هذا ، يبقى بديهياً ان اللغة اذا كانت تنشأ من ذكاء مبني جزئياً ، فانها تُركّبه في المقابل ، ومن هنا تبدأ المشاكل الحقيقية التي لا يمكن لنا الادعاء بانها

---

(١) إن مؤلف فورت : Thought Without language (١٩٦٥) الشيق ، مفيد جداً في هذا الصدد بفضل البراعة التقنية المستعملة ووفرة البراهين .

قـــد حُلـَّت . لكن بفضل الاسلوبين اللذين تنـْقـِن من التحليل التحويلي الذي يسمح بدراسة التمرينات النحوية (M . D . S . Braine مثلاً) ، ومن التحليل العملي الذي يسمح بالتجارب على تـَعَلـّم البنيات المنطقية (« انهـلدر »، « سنكلر» «وبوفي» فاننا قادرين في النقاط الخاصة على تحليل بعض الصلات بين النوعين من البنيات وحتى أيضاً على استشفاف إلى أي مدى يوجد تفاعلية ، وأيّ من البنيات اللغوية أو المنطقية يبدو أنه يجر بناء الأخريات .

وعلى هذا ، عرضت هـ . سنكلر في كتاب يضم مجموعة من تجاربها النتائج التـــالية : شكلت أولاً مجموعتين من الأطفال معتمدة كمعيار لمستواهم العملي ، مقدرتهم أو عدم قدرتهم على استنتاج بقاء نفس الكمية من سائل في حال صَبِّها في أوعية مختلفة الأشكال : تتألف المجموعة الأولى ، وواضح بأن مقدرتها العملية لم تـُكتسَبْ بعد ، من أشخاص ينفون بقاء نفس الكمية بينما أقرت بهـــا المجموعة الثانية مسبقاً وبررتهـــا ببراهين التعاكسية والموازنة . ثم حَلـَّلت من جهة ثانية لغة هؤلاء الأشخاص بواسطة إجراء لا يمت بصلة باختبار بقاء الكمية ، ولكن يتعلق بوصف شيئين محسوسين أو بمقارنة مجموعتين فيما بينهما : مثلاً : قلم كبير مع قلم صغير ، قلم طويل رفيـع مع آخر قصير غليظ ، أو مجموعة من ٤ أو ٥ كريات وأخرى من اثنتين الخ... ثم يطلب منهم تنفيذ الأوامر: « أعطني قلماً يكون أصغر » أو « يكون أصغر وأرفع » الخ... والحالة هذه ، فقد تبين أن لغة المجموعتين تختلف كلياً. كل ما يستعمله أشخاص المجموعة الأولى هو مطلقاً « Scolaires » (بالمعنى اللغوي): « هذا كبير، وهذا صغير » أو «يوجد كثير» «وهنا غير كثير » الخ ... أما أشخاص المجموعة الثانية ، فإنهم على العكس يستعملون خاصة « الوجهات les vecteurs »: « هذا أكبر من الآخر » « له منه أكثر » الخ ...: زد على ذلك انه في حال وجود اختلافين ، يهمل أشخـــاص المجموعة الأولى احداهما أو يتصرفون بأربعة جمل محورية : « هذا كبير ، هذا صغير ، هذا رفيـع (الأول) ، هذا غليظ » ، بينما تسجل المجموعة الثانية على

العكس ، ارتباطات مزدوجة كقولهم : « هذا أطول وأرفع ، والآخر أقصر وأغلظ » الخ .

وعلى هــذا ، يوجد إذاً صلة أكيدة بين المستوى الحسابي والمستوى اللغوي ونرى دفعة واحدة ما يمكن للبنية الشفهية لأشخاص المجموعة الثـانية ، من مساعدة منطقهم . والحـال يفهم اشخاص المجموعة الأولى تعبير المستوى الأعلى وتسمح المراقبة بتنفيذ الأوامر والتحقق من ذلك بتفصيل . وأخضع هـ . سنكلار اشخاص المجموعة الاولى لتمرين لغوي شاق ، لكن ممكن : ثم بعد فحص جديد لمفاهيم بقـاء الكمية ، لم يلاحظ سوى تقدم ضئيل ، ولنقل حالة واحدة من بين حوالي عشرة .

يجب طبعـاً الاكثار من اختبارات كهذه . فاذا بدى على مستوى العمليات الملموسة ،راجع(الفقرة ١٢)،ان البنية العملية تسبق وتُنتج البنية اللغوية لترتكز بالتالي عليهـا ، فيبقى اذاً ان نتفحص بواسطة اجراء مماثل ما يجري على صعيد عمليات تركيب الجمـل حيث تتعدل لغة الاشخاص بشكل مميز في الوقت الذي يصبح فيه منطق تفكير الاشخاص « افتراضياً ــ استنتاجياً » hypothetico - déductif . إذا كان بديهي اليوم أن اللغة ليست مصدر المنطق ، وإذا صدّق شومسكي بإركاز الأول على الثاني (اللغة على المنطق) فيبقى تفصيل تفاعليهما مجالاً لدراسات بُدِيء حالياً الاطلال عليها بأساليب الاختبـار والتعقيد الموافق له ، والوحيدة التي يمكن أن تغني النقاش بشيء أكثر من الافكار .

٦ استعمال البنيات في الدراسات الاجتماعية

١٨ - البنيويات الاجمالية أو المنهجية . - إذا كانت البنية نظام تحويلات له قوانينه من حيث أنه مجموع ، وله قوانين تؤمن ضبطه الذاتي، فإن جميع أشكال الأبحاث المتعلقة بالمجتمع، مهما اختلفت، تؤدي الى بنيويات. ذلك ان المجموعات أو المجموعات الفرعية الاجتماعية تفرض نفسها على الفور من حيث أنها مجموع ، هذه المجموعات دينامية إذاً هي مواضع تحويلات ، وان ضبطها الذاتي يُعَبَّر عنه خاصة من جراء الواقع الإجتماعي للضغوط ، بشتى أنواعها ، وللضوابط والقواعد المفروضة من قبل الجماعة . لكن بين هذه البنيوية الاجمالية والبنيوية الحقيقية ، لأنها منهجية ، يوجد على الأقل اختلافان .

الأول يتعلق بالإنتقال من البروز إلى قوانين التركيب : ما زالت الجملة عنـد « دركايم » مثلاً في طور البروز فقط ، لأنها تنبثق من نفسها عن إجتماع المركبات مؤلفة بذلك مفهومـاً أول يفسر كما هو : وعلى العكس ، يعتبر « كلود ليفي شتراوس » بأن مرسيل موس مساعد دركايم الحميم ، هو المعلم الأول للبنيويـة الأنتروبولوجية (اوالإناسية) لأنه فتش ، بالأخص في دراسته عن الموهبـة ، واكتشف تفصيل التفاعلات التحويلية .

والاختلاف الثاني الذي ينتج عـن الاول هو ان البنيوية الاجمالية تتعلق بنظام العلاقات أو التفاعلات التي يمكن ملاحظتها ، والذي يعتبر بأنه مكتف

بذاته ، في حين أن ما يخص البنيوية المنهجية هو البحث عن تفسير لهذا النظام في بنية فرعية تسمح بتفسيره تفسيراً نوعاً ما استنتاجياً ، والمقصود هو تشكيله من من جديد بواسطة بناء نماذج منطقية رياضية : لاتدخل البنية في هذه الحالة ، وهو شيء أساسي في نطاق « الوقائع » التي يمكن الاعتراض عليها ، وتبقى لا واعية عند الاعضاء الافراديين للجماعة المقصودة (وغالباً ما يشدد ليفي شتروس على هـــذا الجانب) . وهنا توضيحان مهمان جداً في علاقتها مع البنيويات الفيزيائية والنفسية : يجب اعادة تشكيل البنية الإجتماعية استنتاجياً ، مثـــل السببية في الفيزياء ، إذ لا يمكن اكتشافها على أساس انها معطىً. ذلك يعني أنهـــا بالنسبة للعلاقات التي يمكن الاعتراض عليها، مثـل السببية بالنسبة للقوانين في الفيزياء : والبنية من جهة ثانية ، كما في علم النفس ، لا تنتمي الى الوعي بـل إلى التصرف ، ولا يكتسب الفرد منها سوى معرفة بسيطة بفضـــل حالات من الوعي غير المكتمل ، تحدث في مناسبات من عدم التوافق désadaptations . فإذا ابتدأنا بعلم الإجتماع وعلم النفس الاجتماعي ، وهما في عين من العلم يزداد غموض حدودهما (مثل جميع التعاليم الأكثر ارتباطاً برغبة في الاستقلالية المهنية منهـا بطبيعة الأشياء) ، يمكن أن نرى عند « ك لفين » مثلاً نموذجياً من الآمال ، والتحقيقات الجزئية وميزة تداخلية التعاليم ، الضرورية لبنيوية منهجية . انه تلميـــذ لـ «و. كوهلر» في برلين، وقد شكل قبل الأوان،مشروع تطبيق بنية الجشطلت على دراسة العلاقات الاجتماعية، لذا عمم مفهوم « المجال »: بينما لا تؤلف المجالات المُدْركة والمعرفية بشكل عام ، بالنسبة للصيغيين سوى مجموعـــاً للعناصر المضبوطة في آن واحد (هذا التيار الكامل الذي يضم جهاز الشخص العصبي ، ولكنه ، كما رأينا في الفقرة ١١ ، لا يضم نشاطاته المتأتية عن الجهاز) . ويقترح « لفين » مفهوماً لتحليل العلاقات الانفعالية الشعورية والإجتماعية ، انــه مفهوم « المجال الكلي » [le champ total] الذي يضم الشخص مع ميوله وحاجاته. لكن ليست هذه الميول والحاجات داخلية فقط ، ويثير الشيء ، تبعاً لشكل لشكل المجال الخارجي وتبعاً لقربه خاصة ،يثير تحريضات تشهد على تفاعل كامل

للعناصر القائمة . بعد ذلك، ومستلهماً من الطوبولوجيا (هندسة لا كميّة) ، يحلل لفين مجاله الكلي مستعملاً عبارات الحوازات والانفصالات ، والحدود (المتضمنة « الحواجز النفسية » أو الكبت والمنع من شتى الأنواع) والتغطيات والتقاطعات الخ... : طوبولوجيا قلما تكون للأسف رياضية ، بمعنى انه لا يوجد فيها نظريات معروفة يمكن تطبيقها على المجال الكلي لا أكثر ، غير انه يجب الاعتراف بأنها طوبولوجيا في معنى تحليل مكاني محض كيفي باستبصاراته الاساسية للتراكيب. ويدخلُ « لفين » ، في المرحلة التالية ، الاتجاهات مع فائدتيْ وصف الكليات عن نظرية الـ graphes والوصول الى بنيات شبكات stıucutres de réseaux .

وقد أوجد ليفين وتلاميذه (ليبت ، وايت ومنذ مدرسة برلين ، دمبو ، هوب وزايغارنيك) ، عن لريق هذه الاساليب البنيوية المحضة ، أوجدوا علم نفس اجتماعي وانفعالي شعوري ، عَرَفَ تطورات كبيرة في الولايات المتحدة وكان احد المراجع الاساسية لابحاث عديدة حالية حول « دينامية الجماعات ». (وما زال يوجد مع كاروورايت مؤسسة مُختَصّة لهذه الدراسات في آن اربور). وتقدم اليوم هــــذه الابحاث التي توالدت بشتى التنوعات ، مثلاً جميلاً حول التحاليل التي ترتكز كلياً على الاختيار ولكنهـــا تعود، عند التفسيرات ، لبناء النماذج البنيوية ، حتى انه يوجد اختصاصيون في هذه النماذج الرياضية بمـا يخص الجماعات الصغيرة (مثل « ر.د. لوس » في الولايات المتحدة، « وكلود فلامان » في فرنسا) .

لا شيء جدير بالذكر هنا بالنسبة لعلم اجتماع الجماعات الصغيرة [la macroso-ciologie] وعلم قياس العلاقات الاجتماعية [la sociométrie] لأنهما إما ظلا إجماليين كثيراً بالمعنى الذي ميزناه فيما قبل، أي خضوع كيفي للعلاقات الملحوظة والتي لا تشكل بنية حتى لو تكاثرت في تعددها « الديالكتيكي » ، وإمـــا انهما يرتكزان على أساليب إحصائية جارية تعبّر عن العلاقات بأرقام ولكنها مـــع ذلك لا تصل بذلك إلى بنيات .

في مقابل ذلك، يثير طبعاً علم اجتماع الجماعات الكبيرة [la macrosociologie المسائل البنيوية الكبيرة . وسننتظر الفصل السابع للتذكير بالطريقة التي ترجم فيها «ألتوثر» الماركسية الى البنيوية، وهذه هنا مسألة تهم الديالكتيك كلها ولكن يجدربنا هنا العودة الى مؤلفات بارسونس الذي يثير من جديد باسلوبه « البنائي الوظيفي » مشكلة البنية والوظيفية (التي سبق ان عرضنا لها في الفقرة ١٣) .

يجب بالفعل ذكر اسم بارسونس كخارج جزئياً عن نطاق الاتجـــاه الانكلو ـ ساكسوني العام التجريبي الذي لا يتكلم عن البنيات إلا فيما يخص العلاقات والتفاعلات الممكن ملاحظتها . ذلك ان بارسونس بتحديده البنية كترتيب ثابت لعناصر نظام اجتماعي بعيد عن التقلبات التي تـفـرَض عليه من الخارج ، منقاد لأن يحدد نظرية التوازن بكل دقة . وقد دفعه هذا الاتجـــاه الانكلو ـ سكسوني إلى أن يمهد الى مساعد أمر استنباطها . أما الوظيفة ، فالمفهوم انها تتدخل في تطابقات البنية مع الظروف الخارجية لها .

لا يمكن إذاً فصل الوظيفة والبنية عن نظـــام كلي يمكن القول بأنه يؤمن بقاؤه بواسطة انتظامات ، والمشكلة التي راودت « بارسونس » دائماً هي في كيفية دمج الافراد للقيَم المشتركة . وقدم من هذا المنظور نظرية « للفعل الاجتماعي » محلـــلا شتى أنواع الخيارات [alternatives] التي يكون الفرد أمامها حسبما يرفض أو يخضع للقيم الجماعية .

ويرتبط مؤلَّف بارسونس بمؤلَّف «ليفي» الذي يقصرالبنيات على التشابهات الملاحظة ، والوظائف على ظهور البنيات عبر الزمن . تبدو لنا هذه العلاقات بين المتزامن والتطوري (Le chronique et le dichronique) مختلفة بعض الشيء حسبما هو المقصود : معايير ، قيم (معيارية أو فطرية) ورموز بالمعنى الواســع أو شارات (راجع الفقرة ١٤). غير انه لا شك بان الصلة التي يقيمها بارسونس بين الوظائف والقيم عميقة جداً : في بيئة اجتماعية ، تعبر عن البنيات ، مهـــما تكن لا واعية ، آجلا أم عاجلا ، معايير أو قواعد تفرض نفسهـــا على الافراد بشكل ثابت تقريباً . لكن مهما نكن مقتنعين بدوام البنيات (مسألة علينـــا

مناقشتها : الفقرة ١٩) يبقى انه يمكن ان يكون لهذه القواعد عمل متنوع، مما يظهر عبر التغييرات التي تطرأ على القيم : غير ان القيم بما هي قيم ليس لها « بنية » سوى بالضبط ، بقدر ما يرتكز بعضٌ من أشكالها على معايير معينة مثل القيم الاخلاقية . وهكذا فان الازدواجية والارتباطات معاً للقيمة وللمعيار ، يؤكدان على ضرورة إعادة ربط البنية والوظيفة مع ضرورة تمييزهما أيضاً .

ان هذه المشكلة للوظيفة والبنية هي التي تسيطر على مسألة البنيات الاقتصادية عندما يحدد « ف. برّو » البنية بـ «النسب والعلاقات التي تميز مجموعة اقتصادية محددة في الزمن والحيّز » . وتحديدات المفهوم نفسها تبيّن اختلافها مع تحديدات البنيات التي كانت موضوع بحثنا حتى الآن . غير ان الحكمة لا تقف عند حد كون برّو يبدو حاصراً نفسه بالعلاقات الملحوظة . ويرى تنبرجن في البنية الاقتصادية « اعتباراً لميزات غير ملحوظة مباشرة تتعلق بالطريقة التي يستجيب بها الاقتصاد لبعض التغييرات ، يُعَبَّر عن هذه الميزات في الاقتصاد المتري [économétric] بألفاظ معدلات coefficients و « مجموع هذه المعدلات يقدم إعلام مزدوج » : يعطي من جهة عن الاقتصاد صورة هندسية ، ويحدد من جهة اخرى ، طرق الاستجابات لبعض هذه التغييرات . ولا يسعنا إلا القول بان البنية الاقتصادية تستوجب الاشتغال إذ أنها قابلة للاستجابات هذا يعني انه لا يمكن فصلها عن الوظائف .

أما طبيعة هذه البنية،فقد ركزناها على تحليل التوازن،لكن عندما أصبحت المشكلة الاساسية مشكلة دينامية الدورات ، ارتأينا التليين من المفهوم إلى معنى الاشتغال بالتحديد : اعتبر مارشال ان الحل يكون بتوسيع بنية التوازن ، كما في الفيزياء ، إلى بنية « تنقلات التوازن »[déplacements d'équilibre] فيما سعى كينز الى دمج المدة بشكل التنبؤات والحسابات التي للموضوع الاقتصادي في الحاضر . وكما يقول ج ح غرنجر يصبح المفهوم البنائي للتوازن، في

هاتين الحالتين (أو غيرهما) « مديراً موجهـــاً » opérateur يسمح بتفسير الدورات .

غير ان ميزة البنيات الاقتصادية لا ترتهن فقط بالأولية المعطاة للاشتغال : بل انها تحتوي ، وبدون شك لهذا السبب نفسه ، على طابع احتمالي بالاخص ، نتيجته عندئذ ان الضبط الذاتي للبنية لا ينهج بعمليات محصورة بل بانتظامات تنهج بردات فعل وتوقعات تقريبية من نوعية الـ feedbaks . وتلاحظ هـــذه النوعية الفردية من البنية على صعيد القرارات الفرديـــة للشخص الاقتصادي du sujet économique (نظرية الالعاب) théorie des jeux مثلما تلاحَظ على صعيد المجموعات الاقتصادية الكبيرة التي حللها الاقتصاد المتري . واستطاع غرانجر القول بان نظرية الالعاب كانت تدل على استبعاد العوامل النفسية ،ويصح قوله هذا إذا لم نفكر سوى بعلم النفس المختصر قليلاً لبارتو أو « دِ و بوم ـ باورك » . لكن عندما نتذكر دور إواليات القرارات هذه في التصرف بشكل عام (وليس الوعي) وهذا ليس فقط على الصعيد الانفعالي الشعوري (الذي يُعبر كما برهن جانيت عن كامل بنية économie داخلية للمسلك) ،بل أيضاً على أصعدة الادراك والنمو المعرفي[1] . نحن مدعوون على العكس لان نرى في نظرية الالعـــاب تلاحماً أمتن من ذي قبل ، بين البنيات الاقتصادية وانتظامات الشخص الانفعالية الشعورية والمعرفية . أمـــا أنظمة المفعول الارتجاعي feedbacks الكبيرة التي يستخلصها الاقتصاد المتري من علم الاقتصاد الجمعي ، فهي معروفة بمـــا فيه الكفاية وأكثر ، فلا ضرورة للتشديد عليها .

تقدم البنيات التي تتعلق بالمعايير ، في مقابل القيم الطبيعية ، ميزة عملية ، بالمعنى المنطقي للفظة ، جديرة بالملاحظة . ويعلم الجميع الطريقة التي وصف بهـــا كلسن بنية القانون كهرم معايير ، موثوقة بواسطة علاقـــة تضمينية عامـــة بين

(١) المجالات حيث امكن لنظرية الالعاب ان تطبق بنجاح .

معايير اسماها بـ « الاتهام الكاذب » imputation وقد جعل في قمتهـا المعيار الاساسي الذي يؤسس شرعية الكل وخاصة الدستور ، ومن هـــذا الاخير نستقي شرعية القوانين التي تؤسس شرعية قرارات الحكومة أو قرارات سلطة الحاكم. ولهذا السبب تكتسب « القرارات الرسمية » الصفة الشرعية وهــلم جرا حتى نصل إلى تعدد «المعايير المفرّدة normes individualisées » ، الاحكام الجزائية ، التعيينات الفردية ، الشهادات، الخ. لكن إذا كان بإمكان هذه البنية الجميلة أن توضع على شكل شبكة جبرية (بمعنى أن كل معيار هو « تطبيق » للمعايير الأعلى) ، وذلك لا يتعلق بالمعايير الاساسية التي لا شيء فوقهـا ، وفي نفس الوقت انشاءٌ لمعايير أدنى منها ، وقد لا يعني المعايير المفردة التي لا شيء تحتها ، فما هي طبيعتها عندئذ ؟

طبعاً ، سيقول علماء الاجتماع انها طبيعة اجتماعية غير ان كلسن يجيب بانه لا يمكن قصرُ المعيار على الواقع . ثم يزيد كلسن نفسه : انها طبيعة معيارية بذاتها (جوهرياً) ولكن بربط المعيـــار الاساسي في هذه الحالة إذا كان هذا المعيار لا يصدر عن فعل « اعتراف » بإمكانيـة « الافراد ذوي الحقوق » لأن يضفوا عليه شرعية ؟ ويعتقد أنصار « الحق الطبيعي » بأنهـا بنية مرتبطة « بالطبيعة الانسانية » بما هي طبيعة : انها حلٌ بديهي للذي يعتقد بأبدية تلك الطبيعة الانسانية ،لكنها لا تشكل سوى مجرد حلقة للذي يحاول فهمنا بالرجوع الى تكوينها .

١٩ – بنيوية كلود ليفي شتراوس الانتروبولوجية . – اهتمت اساساً الانتروبولوجيا[١] anthropologie الاجتماعية والثقافيـة بالمجتمعات البدائيـة حيث لا يمكن فصل السياقات النفسية الاجتماعية عن البنيـــات اللغوية

---

(١) ويقال أيضاً « إناسة »: اي العلم الذي يبحث في اصل الجنس البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته . – المترجم –

والاقتصادية والقانونية ، ومن هنا تشديدنا على هذا العلم التركيبي وذلك لتدارك اعجاز الملاحظات التي سبقت . بما ان كلود ليفي شتراوس ، من جهة أخرى ، هو مجسد ذلك الاعتقاد بدوام الطبيعة الانسانية ، فإن بنيويته الانتروبولوجية تعرض ميزة مثالية وتشكل النموذج ، لا الوظيفي ، ولا الوراثي ولا التاريخي، بل الاستقرائي الأكثر دهشة الذي أمكن استعماله في علم انساني تجريبي : ولهذا السبب يقتضي منا، في هذا المؤلف، تَفَحُّصاً خاصاً. بالفعل يبدو لنا غير معقول وجود صلة بين هذا المذهب للبنية كواقع أول لحياة الانسان في المجتمع ، وبنيوية الذكاء البنائية التي توسعنا فيها في الفقرة ١٢ و ١٣ .

وتفيد لتفهم جدة الاسلوب ، رؤيته مطبقاً على الـ « pseudo - entités » للطوطمية totémisme التي انشأت المفهوم الرئيسي لكثير من علوم الاجتماع الاتنوغرافية[1] Ethnographiques وينتهي «ليفي—شتراوس» من مقطع عميق لدركايم حول الإواليات المنطقية الملازمة لكل دين بدائي ، الى « عملية ثقافية لا يمكن لخصائصها بالتالي ان تكون انعكاساً للتنظيم المحسوس للمجتمع» (ص ١٣٨) ومن هنا الرفض لأوّلية العامل الاجتماعي على العقل intellect . هـــوذا المبدأ الاساسي الأول لهذه البنيوية التي ستبحث وراء العلاقات « المحسوسة » عن بنية مخفية وغير موعية ، لا يمكن الوصول اليها إلا عبر بناء استقرائي لنماذج مجردة . ينتج عن ذلك نظرة متزامنة لكنها تختلف في الواقع عن نظرة علم اللغة . غير انها من جهة مُبَرَّرَة يجهلنا المضال لأصول الاعتقادات والتقاليد لكن ، من جهة أخرى، وهنا يتنوع النظام المتزامن أقل ممـــا يتنوع نظام اللغة، « تُقَدَّم التقاليد على انها معايير خارجية قبل أن تُوَلّد احاسيس داخلية ، وتحدد هذه المعايير غيرالمحسوسة، الاحاسيس الفردية كما انها أيضاً تحدد الظروف حيث يمكن لها ويجب عليها ان تظهر » غير ان هذه المعـــايير تتعلق « بالبنيات » الدائمة .

---

(١) يقال ايضاً : العراقة : وهو علم يبحث في خصائص الشعوب . — المترجم —

(١) Cl. Levi Strauss : le totémisme aujourd'hui 2me. édit. 1965

وبالتالي عندئذ ، فإن ترامنا كهذا يُعبّر بعض الشيء عن نظام تطوري ثابت ! ولسنا نقصد طبعاً بان ليفي شتراوس يريد مَحْوَ التاريخ ؛ البنيات توجد فقط حيث يدخل التاريخ التغييرات ، وهي هذه المرة بنيات تطورية[1] لكنها لا تتعلق بالعقل الانساني .

وبما يخص هذا الاخير ، فالتاريخ « لازمٌ لإحصاء جملة عناصر أية بنية ، انسانية أو غير انسانية . وبعيداً عن ان يوصل البحث عن المعقولية intelligibilité إلى التاريخ او الى نقطة انطلاقه ،فالتاريخ هو الذي يلعب دور نقطة الانطلاق لكل بحث عن المعقولية . . . والتاريخ يوصلُ الى كل شيء شرط الخروج منه » (من كتاب : « الفكر الهمجي : la pensée sauvage » ص ٣٤٧ – ٣٤٨) ، ومن البديهي ان يكون موقف كهذا مضاداً للوظيفية antifonctionnalisme على الأقل بالنسبة للمنظورات مثل منظور ملينوفسكي، بيولوجي وسيكولوجي أكثر منه انتولوجي » ، أي « طبيعي ، ونفعي وانفعالي شعوري » (الطوطامية ص ٨٢) . فاذا عدنا الى بعض النماذج المنتشرة من التفسير المستوحى من الفردية ، نفهم لماذا يبدو أن ليفي شتروس ينسب احياناً حصراً ، مثل هذا، الى المقدرات التفسيرية للبيولوجيا ولعلم النفس . يجب بالفعل أن « نصفق » لهذه الملاحظات التقريرية حول التفسيرات بالانفعال الشعوري « الجانب الأكثر غموضاً في الانسان » والتي تنسى بأن ما هو مضاد لا ينفع لهذا السبب أن يكون في خدمة التفسير » . ولا يمكن لنا أيضاً إلا أن نُسَرّ لِروية ليفي شتراوس يُحيدُ عن الترابطية التي ما زالت حية للأسف في بعض الأوساط : « والذي يُفَسّر قوانين الترابط هو منطق التقابلات والارتباطات، الاستبعادات والانتماءات،الإنسجامات والتضادات لا العكس : ويجب على الترابطية الُمجددّة ان تتأسس على نظام عمليات مشابهة لجبر بول Algèbre de Boole ص ١٣٠) . لكن اذا امكن هكذا ، رؤية « سلسلة ارتباطات منطقية تجمع

---

(١) « إن البنيات التطورية والترامنة توجد فعلاً وقانوناً » في كتاب :
(1962) Sens et usages du terme Structure .

العلاقات الفعلية » (ص ١١٦) ، وإذا كان المنهج النهائي ، في جميع المجالات ، يقوم على اعادة دمج المضمون بالشكل ، (ص ١٢٣) فان المسألة تبقى في تنسيق البنيوية الاجتماعية أو الانتروبولوجية ، عاجلاً أم آجلاً ، مع البنيويات البيولوجية والنفسية التي لا تستطيع ان تتخلى عن الطابع الوظيفي على أي مستوى كان .

عما يخص البنيات المستعملة من قبل ليفي شتراوس ، يعلم كل واحد انه تمكن بالاضافة الى البنيات اللفظية وحتى السوسورية عامة ، من إيجاد البنيات الجبرية من نوع الشبكات ومجموعات التحويلات والخ ... في مختلف نظم القرابة واستطاع تشكيلها بمعاونة رياضيين مثـــل أ. وايل ، وج. ت. جيلبو . لا تنطبق هذه البنيات على القرابة فقط : بل يمكن المثور عليها في انتقال من تصنيف الى آخر ومن اسطورة الى اخرى ، وباختصار ، في جميـــع التطبيقات او النتاجات المعروفية للحضارات المدرسية .

ويسمح نصان اساسيان فهم المعنى الذي اعطاه ليفي شتراوس لبنياته في تفسير انتروبولوجي كهذا :

إذا كان النشاط اللاواعي للذهن يشتمل على فرض الأشكال على الضمون ، مثلما نعتمد نحن ، وإذا كانت إساساً هذه الاشكال هي نفسها لجميع الاذهان ، القديمة والحديثة ، البدائية والمتمدنة – كما تبينه دراسة الوظيفة الرمزية بكثير من الوضوح في تعبيرها عن نفسهـــا عبر الكلام – فيجب ويكفي الوصول إلى البنية غير المتوعية الكامنة تحت كل مؤسسة وتحت كل تقليد وذلـك للحصول على مبدأ التفسير يصبح لمؤسسات اخرى وتقاليد اخرى ، شرط ان ندفـــع بالتحليل بعيداً ، وهذا أمر طبيعي » (الانتروبولوجيا البنائية – ص ٢٨).

لكن هذا الذهن الانساني الثابت او « النشاط اللاواعي للذهن » يحتـل في فكر ليفي شتراوس موقعاً محدداً ، ليس هو بفطرية شومسكي ولا هو بالأخص « التجربة المعاشة » التي من المفروض التخلي عنها « مع احتمال اعادة دمجهـا في تركيب موضوعي بعد ذلك » من كتاب : tristes tropiques ص ٥٠) بل انه

نظام من التصورات محصور بين البنيات التحتية والبنيات الفوقية : « غالباً ما عقلت الماركسية – إن لم يكن ماركس نفسه – كما لو أن التطبيقات تنتج مباشرة عن الممارسة. وتعتقد، دون التعرض الى الاولية الاكيدة للبنية التحتية، بأنه يندرج دائماً بين الممارسة والتطبيق وسيط بشكل البنية التصورية التي بفضل عمليتها، تكتمل المادة والشكل اللذان حُرما من وجود مستقل أي على غرار كائنات تجريبية ومعقولة في آن معاً. وستقتصر مساهمتنا على هذه النظرية للبنيات الفوقية التي لمحّ إليها ماركس، عاهدين الى التاريخ – تعاونه في ذلك الديموغرافيا والتكنولوجيا والجغرافيـــا التاريخية والاتنوغرافيا – امر تطوير دراسة البنيات التحتية، بحصر المعنى، التي لا يمكن لهـــا ان تكون دراستنا الاساسية نحن، ذلـــك أن الاتنولوجيا هي، قبل أي شيء، علم نفس » (la pensée sauvage ص ١٧٣ – ١٧٤).

تصبح المسألة الرئيسية التي يثيرها هذا المذهب الواسع، وذلك بعد أن نكون قد سلمنا بوجود البنيات التي لا تختلط إذاً، رغم (العالم الاتنوغرافي الانكلو – سكسوني رادكليف براون الذي كان اكثر من تقرب منها) مع نظام التفاعلات الملحوظة، هي مسألة فهم ماهية هذا « الوجود ». وليس هذا الوجود مطلقاً، وجوداً شكلياً عائد للمنظّر الذي يرتب نماذجه منتلقاء إرادته، إذ توجد هذه البنيات خارجاً عن تلك الارادة وتشكل مصدر العلاقات المكتشفة، الى درجة تعقد معها البنية، دون هذا التوافق الوثيق مع الوقائع، كل قيمة حقيقية. كما ان البنيات ليست «جواهر» صورية ذلك ان ليفي شتراوس ليس فينومينولوجياً ولا يؤمن بالمدلول الأولي لِـ « الأنا » أو لِـ « التجربة المعاشة ». اما الصيغ التي تعاود بلا انقطاع فهي انما تصدر عن « العقل » او عن عقل إنساني مماثل دوماً لنفسه، ومن هنا أوليتها على العامل الاجتماعي (على عكس « اولية العامل الاجتماعي على العقل » الذي ينتقده عند دركايم) وعلى العامل العقلي (ومن هنا التسلسلات المنطقية التي تربط فيما بين العلاقات العقلية) وبالاحرى على الجهاز العضوي Organisme الذي يفترض به بحق تفسير الانفعال الشعوري ولكنه

ليس مصدر البنيات) . غير ان المسألة تزداد حدة : ما هو نمط وجود العقل او الذهن ان لم يكن اجتماعياً او عقلياً او عضوياً ؟ .

ان تترك المسألة دون جواب فهذا يعود للحديث عن بنيات طبيعية لا أكثر لكنها تذكرنا ، وبكل غضب ، بـ « الحق الطبيعي » الخ ... والحال انه بالامكان تبيان الجواب . فاذا كان من الضروري اعادة دمج المضامين بالاشكال ، كما يقول صراحة ليفي شتراوس ، فليس اقل ضرورة التذكير بأنه لا يوجد ، بالمعنى المطلق ، لا اشكال ولا مضامين ، بل أي شكل في الواقع كما في الرياضيات ، هو مضمون للاشكال التي تشمله ، وأي مضمون هو شكل للمضامين التي يحوي . غير ان هذا لا يعني (كما رأينا في الفقرة ٨ بأن كل شيء يكون « بنية ») ويبقى أن نفهم كيفية الانتقال من هذه الشمولية للاشكال الى وجود البنيات الاكثر تحديداً لانها محدودة اكثر .

يجب التحقق اولاً من أنه إذا كان ، من هذا المنظور ، كل شيء قابلاً لِلبَنْيَنة فلن توافق إذاً البنيات بالاضافة الى ذلك سوى بعض « اشكال » بين أخرى خاضعة للمعيارات المجرّدة لكنها قابلة خصوصاً لأن تنشيء جملات لها قوانينها بما هي قوانين نظام ، وتفرض هذه القوانين بالتحويلات وبالأخص تؤمن للبنية استقلالها وضبطها الذاتي ولكن كيف تتوصل « اشكال » ما إلى أن تنتظم بهذه الطريقة على شكل بنيات ؟ عندما يتعلق الامر بالبنيات المجردة للعلم المنطقي Logicien او للرياضي ، فأن هذه الاخيرة هي التي تستخرج البنيات من الاشكال . غيرانه في الواقع يوجد سياق تكويني عام ينقل من الاشكال الى البنيات ويؤمن الضبط الذاتي الملازم لها : وسياق الموازنة هو الذي يحدد ، في المجال الفيزيائي ، موقع نظام من مجموع اعماله الافتراضية Virtuels (راجع الفقرة ٩) ، وهو الذي يؤمن ، في المجال العضوي ، الـ Homéostasies من جميع المستويات للكائن الحي (راجع الفقرة ١٠) وهو الذي يتحقق في المجال النفسي من تطور الذكاء (راجع الفقرة ١٢ — ١٣) وهو الذي في المجال

الاجتماعي يمكنه تأدية خدمات مماثلة . وبالفعل إذا تذكرنا بان كل شكل توازني يضم نظام تحويلات افتراضية تشكل فريقاً، إذا ميزنا حالات التوارن والموازنة كسياق ينزع نحو هذه الحالات، فيحلل هذا السياق ليس فقط الانتظامات التي تتبع مراحله، بل أيضاً شكلها النهائي أي التقابلية العملية . وتحوي أذن موازنة الوظائف المعرفية أو العملية على كل ما هو ضروري لتفسير التصورات العقلانية : نظام تحويلات مضبوط ، وانفتاح على الممكن ، أي شَرْطيّ الانتقال من التكوين الزمني la fomation tempoielle إلى الرباطات اللازمنية interconnexions intemporelles .

ولا تعد المشكلة من هذا المظور مشكلة تقرير ما إذا كانت الاولية (او الاسبقية) للعامل الاجتماعي على العامل العقلي، بل العكس العقل الجماعي هو العامل الاجتماعي المؤازن بفضل لعبة العمليات التي تتدخل في جميع الـ co-opérations . وكذلك فإن الذكاء لا يسبق الحياة العقلية ولا ينحدر منها كمجرد ناتج بين أخرين: أنه شكل التوازن لجميع الوظائف المعرفية — تغدو العلاقات بين العقل والحياة العضوية من طبيعة واحدة . فاذا كان لا يمكن القول بان أي سياق حيوي هو سياق « معقَل » ، فيمكن الاخذ بأن الحياة ، في التحويلات التشكلية morphologiques التي سبق أن درسها آرسي تومسون (Growth and form منذ زمن وهو مؤلف أثر في ليفي شتراوس مثل دراسته عن علم المعادن) هي حياة هندسية، ونستطيع ان نذهب اليوم في التأكيد بأنه يعمل، في نقاط عديدة جداً مثل آلة أحيائية Machine Cybernétique او « ذكاء اصطناعي » . لكن من هذا المنظور ماذا يصبح العقل الانساني المماثل لنفسه دائماً، يقول ليفي شتراوس: لكن البرهان استمرارية «الوظيفة الرمزية»؟ ونعترف بأننا لم نفهم جيداً ما الذي يبقي هذا « العقل esprit » أفضل تعزيزاً إذا جعلنا منه مجموعة تصورات دائمة عوضاً عن نتاج مستمر لبناء ذاتي متواصل. ألا يمكن في حال اكتفائنا بالوظيفة الرمزية ، مع القبول بالتمييز السوسوري للشارة والرمزية du signe et du symbole (وهو تصنيف يبدو لنا أعمق

من تصنيف بيرس[1] ، بان نفكر بوجود تطور من الرمز المجازي الى الشارة التحليلية ؟ هذا هو معنى مقطع لروسو حول الاستعمال البدائي للاستعارات tropes يذكره ليفي شتراوس، مع الموافقة عليه، في سياق كلامه عن «الشكل الأولي للفكر الاستدلالي pensée discursive : إلا أن كلمة « أولي » تستتبع تكملة أو على الاقل مستويات ؛ ولو أن « الفكر الهمجي » ما زال حاضراً بيننا، تشكل مستوىً أدنى من مستوىً « الفكر العلمي » : والحال أن المستويات المتدرجة تستتبع مراحلاً في التكوين. ويمكن أن نتساءل خاصة عما إذا لم تكن «التصنيفات البدائية » الجميلة التي يتكلم عنها ليفي شتراوس في «الفكر الهمجي» نتاجاً « لتطبيقات » بدلاً من تكتلات بالمعنى العملي (راجع الفقرة ١٢) .

اما بما يختص بمجموع هذا المنطق الطبيعي فاننا نفهم التعارض المبدئي العام بين بنيوية ليفي شتراوس ووضعية ليفي برول . ويبدو ان هذا الاخير قد تقلص كثيراً بعد وفاته كما تقلصت اعماله الاساسية : لا يوجد « عقلية بدائية » لكن ربما يوجد قبل منطقية بمعنى مستوى سبق عملي أومستوىً محدوداً في بدايات العمليات المحسوسة فقط (راجع الفقرة ١٢) . والمشاركة مفهوم مفيد جداً شرط ان نرى فيها ليس صلة وهمية لاتأخذ بعين الاعتبار التناقض والتوافق ، بل علاقة تَكَثُرُ عند الطفل الصغير ، وتبقى في منتصف الطريق بين العالم والفردي : ombre الذي نقيمه على الطاولة ليس ، في حوالي الاربع والخمس سنوات ، سوى « ظل ما تحت الاشجار » أو ظل الليل ، وذلك ليس بسبب تَضْمينٍ في فئة عامة ولا حتى بسبب نقلٍ حيّزي مباشر (رغم ما يقوله الشخص) ، لكن بفضل التحام فوري بين اشياء تَنْفَصِلُ فيما بعد ثم تُجَمَّعُ في فئة ، وذلك بعد ان يفهم القانون . وحتى اذا لم نرى في المشاركة إلا « فكراً

---

(١) يميز سوسور ما بين Indice (وهو سببياً من نوع المدلول) ، الرمز (المُسَبَّب) والشارة (الاعتباطية) ، وهذه الاخيرة اجتماعية بالضرورة لأنها إصطلاحية ، بينما يمكن الرمز أن يكون فردياً (في الاحلام الخ ...). كان بيرس يقابل الـ indice بالأيقونة (الصورة) والرمز (الشارة لكنها مرتبطة بالشيئين الأولين) راجع الفقرة ١٤ .

pensée analogique فإن لها فائدتها بما هي قبل منطقية وذلك في المَعْنيين : معنى سابق للمنطق الواضح ومعنى التحضير لبلورته .

وتظهر ، دون شك ، انظمة القرابة التي وصفها ليفي شتراوس بمنطق أكثر تماسكاً . لكن من البديهي ، وخاصة بالنسبة للعلم الأنتوغرافي ان لا تكون نتيجة اختراعات فردية (للفيلسوف الهبي) تايلور ، ولم يجعلها ممكنة سوى بلورة جماعية طويلة . إذاً المقصود مؤسسات ، وهكذا فان المسألة هي نفس المسألة التي طرحت للبنيات اللغوية التي تفوق قدرتها قدرة معدل المتكلمين[1] . وإذا كانت مفاهيم الانتظام الذاتي او الموازنة الجماعية تقدم أدنى معنى ، فمن الواضح بان الرجوع الى النتاجات الثقافية المبلورة لا يكفي للحكم على منطق أو بمنطق اعضاء مجتمع معين : وتغدو المشكلة الحقيقية مشكلة استعمال مجموع هذه الادوات الجماعية في طرق التفكير المتداولة لحياة كل واحد . غير انه يمكن ان تكون هذه الادوات من مستوى يفوق بشكل ملموس مستوى هذا المنطق اليومي . يذكرنا ليفي شتراوس بمجالات حيث يحسب الهنود بدقة العلاقات المفروضة في نظام قرابة ما[2] . غير ان ذلك لا يكفي ، لان هذا النظام قد انتهى ، وهو مضبوط قبلاً وذا مستوى متخصص ، بينما نود ان نشهد اختراعات فردية . ونعتقد إذا من جهتنا ان المسألة تبقى مطروحة طالما لم يقم بطريقة منهجية بابحاث دقيقة حول المستوى العملي (بالمعنى الذي ورد في الفقرة ١٢) لكبار والأطفال مجتمعات متنوعة .

غير انه يصعب القيام بهذه الابحاث لانها تفترض تكويناً نفسياً جيداً حول تقنيات الفحص العملي (مع حوار حر وليس بتوحيد للنمو حسب طريقة الروائز tests ، ولا يمتلك جميع علماء النفس مثل هذا التكوين) ، وتفترض ايضاً معلومات اتنوغرافية كافية واتقان تام للغة الاشخاص . واننا لا نعرف سوى

(١) لا تعلمنا بناءات مؤرضة térmitière بشكل مشارك عما هي عليه هذه التأرضات في اوضاع اخرى .

(٢) هندي أمبريم الذي وصفه ديكون ص ٣٣٢

محاولات قليلة من هذا النوع وقد اقيمت احدها حول « الأرونتس» الاستراليين الشهيرين، والنتيجة : تأخر منهجي في تكوين مفاهيم بقاء لنفس الكمية (بقاء كمية من سائل نقلت الى اناءات مختلفة الاشكال)، لكن مع اكتساب طبعاً ، بما قد يظهر في حالات خاصة إمكانية الوصول الى أول درجات مستوى العمليات المحسوسة . قد يبقى هنا فحص العمليات الافتراضية (التركيبية ... الخ ...) وبالاخص لدراسة مجتمعات كثيرة اخرى في وجهات النظر هذه .

أما بما يخص الطابع الوظيفي للبنيات فيبدو صعباً غض النظر عنهـا طالمـا سلمنا بجانب من البناء الذاتي . إذا كانت عوامل الفائدة لا تفسر وحدها تكويناً بنيوياً فإنها تثير بعضاً من المسائل التي يقدم هذا التكوين جواباً عليها وتقرب بالتالي ما بين التكوين والجواب « راجع الفقرة ١٠ حول أفكار ودنفتون » . ومن جهة أخرى يكثر أن تتغير بنية ما وظيفتها حسب الحاجات الجديدة التي تطرأ على المجتمع .

وبكلمة ، لا تؤدي أي من هذه الملاحظات التي سبقت الى التشكيك في الجوانب الإيجابية ، أي البنائية خاصة من تحاليل ليفي شتراوس؛ فهي لا تهدف إلا الى إخراجها من انعزالها الساطع . لأنه إذا تركزنا فوراً في حالات الانجاز ، فإننا ننسى الميزات ، وقد تكون هذه الميزات الأكثر خصوصية من النشاط الإنساني وحتى في جوانبه المعرفية :.توصل الانسان ، على خلاف كثير من الأجناس الحيوانية التي لا يمكن لها ان تتغير الا بتغيير جنسها ، الى تحويل نفسه بتحويل العالم والى بنينة نفسه عبر بناء البنيات دون ان يتلقاها من الخارج ولا من الداخل بمقتضى قدر لا زمني prédestination intemporelle . ليس تاريخ الذكاء « بقائمة عناصر » ، انه مجموعة تحويلات لا تختلط مع تحويلات الثقافة ولا مع تحويلات الوظيفة الرمزية ، لكنها بدأت قبلها بكثير وأولدتها ، واذا كان العقل لا يتطور دون سبب لكن بمقتضى ضرورات داخلية تفرض نفسها بالتتابع مع تفاعلاتها مع البيئة الخارجية ، فقد تطورت ، بعد كل حساب ، من الحيوان الإنساني الى انتولوجيا ليفي شتراوس البنيوية .

٧ البنيوية والفلسفة

٢٠ – البنيوية والديالكتيك . – لن نتعرض بالبحث في هذا الفصل إلا لمسألتين عامتين أثيرتا بمناسبة الأبحاث البنيوية .

وكان يمكننا إطالة اللائحة إلى ما لانهاية ، لأن الموضة ما ان استولت عليها حتى لم يعد هناك فيلسوف جديد إلا وتبعها ، والتجديد الذي أتت به الموضة ينسى قدم الطريقة في ميدان العلوم المهملة بسهولة في بعض الفلسفات .

١ – والمسألة الأولى من مسألتينا الاثنتين تفرض نفسها بالتأكيد، لأننا، بمقدار ما نتعلق بالبنية ، بتخفيضنا قيمة الأصل والتاريخ والوظيفة ، عندما لا يكون نشاط الشخص نفسه ، بمقدار ما ندخل عندئذ بديهياً ، في صراع مع الميول الأساسية للفكر الديالكتيكي . فمن الطبيعي إذاً ، والمفيد كثيراً بالنسبة إلينا أن نرى ليفي شتراوس يكرس هذا الفصل الأخير من كتابه « الفكر الهمجي la pensée sauvage » لمناقشة كتاب « نقد الفكر الديالكتيكي » لجان بول سارتر . ويبدو ضرورياً هنا استعراض هذا النقاش نظراً لأن محركيه الاثنين ، يبدو أنهما نسيا حقيقة أساسية، إلا وهي أن البنيوية كانت دائماً متضامنة مع بنائية constructivisme لن نستطيع أن نرفض ميزتها الديالكتيكية، مع كل ما تحمله هذه الميزة من الإشارات المميزة للتطورات التاريخية ، لمعارضة الأضداد « والتجاوزات » ، بصرف النظر عن فكرة الجملة المشتركة بين الميول الموصوفة

بأنها ديالكتيكية بقدر ما تكون بنيوية . وتشكل النظرية البنائية ولازمتهـا النظرية التاريخية ، اللتان يستعملها سارتر في أبحاثه ، المركبات الأساسية للفكر الديالكتيكي . بالنسبة لهذه النقطة الأخيرة يشير ليفي شتراوس ، إلى جانب نقده العام للتاريخ الذي تكلمنا عنه ، إلى الصعوبات التي توجد في فكر سارتر الذي يتركز على « الأنا » أو على « النحن » بأنه مجرد « أنا » من القوة الثانية . وهـذا الأنا منغلق بدوره بإحكام على « أنوات » (جمع أنا) أخرى (الفكر المعجمي) . ولكن هذه الأفكار عند سارتر لا تشكل نتاجات ديالكتيكية ، بل بقايا وجودية لم تستطع ديالكتيك بقيت فلسفية ، أن تمحيهـا ، بينما يؤدي سياق الصياغة الديالكتيكية بالعكس ، إلى الوضع ضمن تبـادلية للنظرات في ميدان الفكر العلمي . أما فيما يتعلق بالبنيوية ، فسندافع عنهـا ضد اعتراضات ليفي شتراوس،ولكن بشرط أساسي هو أن سارتر (ما عدا بعض الاستثناءات) يعتبر أن البنيوية تشكل وقفاً على الفكر الفلسفي لأنها متميزة عن المعرفة العلمية ولأنها تعطي عن هذه الأخيرة صورة مستعارة ، تقريباً بشكل شبه كلي ، من النظرية الوضعية ومن طريقتها « التحليلية » .

ولكن ليس فقط أن الوضعية ليست العلم الذي تعطينا عنه صورة مشوهة قطعاً، ولكن الوضعيين في الفلسفة،كما حدد ذلك ميرسون،غالباً ما يحصرون هذا الاعتقاد بتصريحات الإيمان المعروضة في توطئاتهم ، ويعملون غالباً بعكس مـا تنادي به هذه العقيدة ، وذلك مـا أن يوسعوا تحاليلهم الاختبارية ونظرياتهم التفسيرية : أن نتهمهم بنقص الوعي أو بالنظرية العلومية شيء ، وأن نمثل عملهم بالوضعية فذلك شيء آخر .

هذا من ناحية ، من ناحية أخرى نجد أن الروابط التي أثبت وجودهـا شتراوس بين العقـل الديالكتيكي والفكر العلمي تبقى على درجـة مقلقة من التواضع بالنظر إلى متطلبات الفكر العلمي ، وتجبرنا هذه الروابط أن نعيد إلى السياقات الديالكتيكية دوراً لم تكن تحلم به . زد على ذلك أنه يبدو واضحاً ،

أنه إذا كان ليفي شتراوس لم يقدّر هذه السياقات حق قدرها ، فهذا راجع إلى ميزة بنيويته الجامدة نسبياً وغير التاريخية والتي ليست لصالح ميول البنيوية بشكل عام .

إذا فهمنا ذلك جيداً فإن ليفي شتراوس يجعل من العقل الديالكتيكي عقلاً « مركباً دائماً » (الفكر الهمجي) ، ولكن بمعنى « شجاع » أي يبني الجسور ويتقدم بعكس العقل التحليلي الذي يُفَصّل لكي يفهم وبالأخص لكي يراقب .

ولا نكون قد شددنا على الكلمات إذا قلنـــا ان هذه التكاملية (العقل الديالكتيكي ليس فقط العقل التحليلي بل شيئاً أكثر من ذلك) تجعلنا نُلْحِق بإحدى الوظائف،وظائف الاختراع أو التقدم التي تنقص لهذه الأخيرة مخصصين لها الضروري من التحقيق . وبطبيعة الحـــال ، فهذا التفريق ضروري ، ومن الطبيعي أيضاً أنه لا يوجد عقلان بل وضعان أو نوعان من « الطرق » (بالمعنى الكارتزي للكلمة) يمكن أن يتبناهما العقل . ولكن البناء الذي يتطلبه الموقف الديالكتيكي لا يقوم فقط على « بناء الجسور » على هاوية جهلنا هذه الهاوية التي يبعد طرفها الآخر دائماً : هذا البناء يتطلب أكثر لأنه غالباً مـــا يولد بنفسه النفي المتفق مع الإيجاب لكي يعود فيجد التماسك في تجاوز مشترك. هذا النموذج الهيغلي أو الكانطي ليس مجرد نموذج مجرد أو تصوري محض وإلا فانــه لا يثير اهتمام العلم ولا البنيوية ، انه يحدد طريقاً محتوماً للفكر ما ان يحاول هذا الفكر الابتعاد عن الخطأ المجرد . في ميدان البنيات يناسب هذا النموذج سياقاً تاريخياً يتكرر من دون انقطاع وقد وصفه باشلارد ، في أحد أهم كتبه ، فلسفة اللا philosophie du non والمبدأ يرتكز على الفكرة التالية : يجب أن ننفي إحدى ميزات البنية إذا كانت هذه الميزة أساسية أو على الأقل ضرورية ، إذا كنا قد أتممنا بناء هذه البنية . مثالاً على ذلك بما أن الجبر التقليدي هو جبر تبادلي فقد بنيت منذ هاملتون علوم للجبر ليست تبـــادلية ، كما أضيف إلى الهندسة الاقليدية هندسات غـــير أقليدية ، وكمل المنطق المزدوج الذي يرتكز على

الـ tiers-exclu بعلوم للمنطق متعددة الفعالية عندما نفى « بروير » قيمة هذا المبدأ في حالة المجموعات اللامتناهية ... الخ.

وفي ميدان البنيات المنطقية الرياضية ، فقد أصبح من الطرق المتبعة ، إذا انطلقنا من بنية معروفة ، أن نبحث عن نظام نفي نبني بواسطته نظاماً مكملا أو مختلفاً نستطيع بعد ذلك جمعه في بنية مركبة شاملة. ولم يبق إلا أن ننفي النفي نفسه كما فعل «غريس» في كتابه « المنطق بدون نفي». ومن ناحية أخرى عندما يطلب منا أن نحدد إذا كان النظام ـ أ ـ يجر النظام ـ ب ـ والعكس ، كما في العلاقات بين الأعداد الترتيبية أو الاعداد الأصلية بين التصور والحكم ، يمكننا أن نتأكد أن وراء الأسبقيات أو التدرجات الخطية ، سيأتي دور التفاعلات أو الدوائر الديالكتيكية .

وبالرغم أن هذا الموقف يشتق مما كان يسميه كانط « التناقضات الحقيقية » أو الواقعية ، يمكننا أن نجد في ميدان العلوم الفيزيائية والبيولوجية موقفاً مقارناً: هل يجب أن نذكّر بالتأرجحات بين المفهومين ، المفهوم الجسيمي corpusculaire والمفهوم التموجي ondulatoire لنظريات الضوء ، أو نذكّر بالتبادلات بين السياقات الكهربائية والمغناطيسية التي قدمها « ماكسويل » في هذه الميادين كما في ميادين البنيات المجردة ؟ يبدو واضحاً ان الموقف الديالكتيكي يشكل مظهراً أساسياً لإعداد البنيات ، مظهراً تكاملياً وغير منفصل حتى عن التحليل التعقيدي في نفس الوقت . وهذا الشيء الزائد الذي يمنحه إياه ليفي شتراوس ببخل ، يقوم على أكثر من وضع الجسور ، ويعود بلا شك إلى إبدال النماذج الخطية بمحاور فيما يتعلق بالقوالب أو بالحلقات غير المفرغة القريبة الصلة بالدوائر الوراثية أو التفاعلات الخاصة بسياقات التطور .

٢ - هذا يعيدنا الى مسألة التاريخ والى الطريقة البنيوية التي حلل بها «التوسير» ومن ثم « غودلييه » أعمال كارل ماركس بالرغم من الدور الذي يعطيه للتطور

التاريخي في تحليلاته الاجتماعية . وفضلا على ذلك ، اذا كان هنالـــك مظهر بنيوي عند ماركس،فانه يؤدي علىالأقل الى نصف الطريق مما سميناه «بالبنيات الشاملة » (في الفقرة ١٨) وما يشكل البنيات بالمعنى الانتروبولوجي الحديث . وهذا بديهي لأنه يفصل بين البنيات التحتية وبين البنيات الفوقية الايديولوجية ، ويصف الاولى بكلمات واضحة مع كونها وصفية قـــادرة على حملنا بعيداً عن العلاقات الظاهرية .

والهدفين الشرعيين اللذان يضعهما«التوسير»نصب أعينه في مؤلفاته التي تشكل علومية للماركسية هما : استخلاص الديالكتيكية الماركسية من ديالكتيكية هيغل وإعطاء الاولى شكلا بنيوياً عصرياً .

بالنسبة للنقطة الاولى يعطينا « التوسير » ملاحظتين هامتين (يستخلص منها نيتجة لن نستطيع أن نـُعَلـّق عليها ، وتتعلق بالميزة القابـــلة للمناقشة لقضية الهيغيلية عند ماركس الشاب الذي يُقَدِّرْ أنه قد انطلق على الارجح من مسألة مستوحاة من كانط وحق من فيخت Fichte) .

الملاحظة الأولى تتضامن مع الثانية وتقضي بأنه بالنسبة للماركسية وبعكس المثالية ،يعتبر الفكر انتاجاً production،أي نوعاً من الممارسة النظرية pratique théorique والذي لا يشكل عملا فردياً بقدر ما يشكل نتيجة تفاعلات ضمنية حيث تدخل العوامل الاجتماعية والتاريخية :ومن هنا تفسير هذا المقطع المشهور لماركس حيث تعتبر«الجملة الحسية» بالحقيقة إنتاجاً للتفكير والتصور.اما الملاحظة الثانية التي سنأخذها من«التوسير»فتقول بأن التناقض الديالكتيكي عند ماركس لا يتعلق مطلقاً بالتناقض الديالكتيكي عنـد هيغل الذي يقتصر بالنهاية على تطابق بين الأضداد .

هذا التطابق هو نتيجة « لتحدد تضافري » surdétermination ، أي إذا فهمنا جيداً ، هو نتيجة لعبة من التفاعلات غير المنفصلة . كما يبين « التوسير » ، بحجة قوية ، الفرق بين مفهومي الجملة عند ماركس وعند هيغل .

عند ذلك أدى هذا التحدد التضافري الذي يعادل على الصعيد الاجتماعي بعض أشغال السببية في الفيزياء، أدى «بألتوسير» إلى إدراج التناقضات الداخلية لعلاقات الانتاج او التناقضات بين هذه العلاقات وبين قوى الانتاج ، وبطريقة أعم إدراج كل الجهاز الاقتصادي الماركسي ضمن نظام من البنيات التحويلية ، يحاول جاهداً إعطاءه المفصّلات ومبادىء التعقيد .

وقد انتُقِد «ألتوسير» لشكليته ، غير أن ذلك يشكل لوماً شائعاً من غير أساس يُوَجهُ عادة لكل بنيوية مجدة . وقد عورض التوسير فيما ظهر للبعض وكأنه تقدير بأقل من الحقيقة ، للموضوع الانساني . ولكن إذا تمسكنا بقيم « الشخص » (التي تجانب في بعض الوقت للأسف الأنا الشخصي) أقل ممـــا تتمسك بالنشاطات البناءة للفعل وللموضوع العلومي فإن تحديد المعرفة كإنتاج، يتطابق مع أحد تقاليد الماركسية الأكثر صلابة . أما فيما يتعلق بالعلاقـــات بين البنيات والتحويلات التاريخية ،يبين غودليه،في ملاحظة شديدة الوضوح[(١)]، العمل الذي بقي علينا إعطاؤه: إذا قارنا البنيات الاجتماعية بالفئات، (بمجموعات أشياء وصلات ممكنة بينها) (راجع آخر الفقرة ٦) يمكننا أن نحدد ما هي الوظائف المسموحة أو غــــير المتفقة مع البنية . ولكن يبقى فيما يتعلق بمجموعة البنيات التي تشكل نظاماً ، أن نفهم كيف أن ظرف الربط بين البنيات « تَحث داخـل احدى البنيات المرتبطة وظيفة مسيطرة » ، ويبقى التحليل البنيوي ضمن هذا الاعتبار ، بحاجة الى الإتقان ولكن بعلاقة ضيقة مع التحويلات التاريخية والوراثية . صحيح ان غودليه (الذي أكمل بشكل رائع تحليل « التوسير » المتعلق بالتناقض عند ماركس) يشير ضمن هذا الاعتبار الى « أسبقية دراسة البنيات على نشأتها وعلى تطورها »، ويلاحظ أن ماركس نفسه اتبع هذه الطريقة بتحديده نظرية القيمة في أول كتاب « رأس المال » . زد على ذلك أننا رأينا في الفقرتين (١٢ و ١٣) أنه ، حتى في الميدان النفسي الوراثي،

---

(١) Godelier. Système, Structure et contradiction dans le capital

لا يعتبر الأصل إلا مروراً من بنية الى بنية أخرى بالاضافة الى ان هذا المرور يفسر الأخرى كما أن معرفة الاثنتين ضرورية لفهم المرور عندما نعتبره تحويلاً .

ولكن ذلك يؤدي الى نتيجة من المفيد ذكرها ، لأنها تلخص اعتراضاتنا على ليفي شتراوس اكثر مما تلخصها الافكار العامة في هذا المؤلف بكامله .

« يصبح من المستحيل تقديم الانتروبولوجيا كتحدٍ للتاريخ، أو تقديم التاريخ كتحد للانتروبولوجيا ، المقابلة بلا طائل بين علم النفس وعلم الاجتماع او بين علم الاجتماع والتاريخ.وبالنهاية ترتكز إمكانية العلوم الانسانية على إمكانية اكتشاف قوانين العمل والتطور والاتصال الداخلي للبنيات الاجتماعية،وبالتالي ترتكز على تصميم طريقة التحليل البنيوية التي اصبحت قـــادرة على تفسير شروط التغير والتطور للبنيات ولوظائفها »(ص ٨٦٤). البنية والوظيفة ، الاصل والتاريخ، الشخص الفرد والمجتمع ، كل هذه المفاهيم تصبح عندئذ غير منفصلة في بنيوية هذا مفهومها وذلك بمقدار ما تتقن أدواتها التحليلية .

بنيوية دون بنيات . — يقدم لنا كتاب « فوكو »، « الكلمات والأشياء » les mots et les choses ، بالعكس ، مثالاً مدهشاً لعمل ذا أسلوب براق ممتلىء بالأفكار غير المتوقعة اللامعة ويدل عن معرفة علمية (مدهشة بشكل خاص فيما يتعلق بتاريخ البيولوجيا وبدون مرادف فيما يتعلق بتاريخ علم النفس) ولكنه لا يحمل من البنيوية المألوفة إلا بعض الظواهر السلبية،من دون ان نستطيع أن نميز في كتابه «أثريات العلوم الإنسانية»شيء إلا البحث عن نماذج مثالية تصورية مرتبطة بشكل خالص باللغة . يحقد Foucault بشكل خاص على الانسان ويعتبر العلوم الانسانية مجرد نتيجة وقتية لهذه التطورات (التاريخية اولاً) أو العلومية التي تتلاحق بدون ترتيب عبر الزمن ؛ وبالفعل ، هذه الدراسة العلمية التي نشأت في القرن التاسع عشر ، سوف تختفي بمثة جملة من دون ان نتمكن من التوقـــع ما هي النوعية العلومية الجديدة التي ستستبدلها .

أحد أسباب هذا الخمود القريب يبحث عنه «فوكو» بفضول في البنيوية نفسها التي تنفتح على الامكانات نفسها، وعلى عملية تطهير العقل التجريبي القديم بواسطة إنشاء لغات شكلية وبممارسة نقد ثانٍ للعقل الصافي انطلاقاً من اشكال جديدة « للأولية الرياضية » . وبالفعل اذا عممنا قدرات اللغة نفسها في لعبة الإمكانيات الممتدة إلى نقطتها القصوى فالذي يظهر هو أن الانسان « منتهي »، وببلوغه قمة كل عبارة ممكنة لا يصل إلى قلبه بل الى الحافة التي تحده : في هــــذه المنطقة حيث يجول الموت ، حيث يخبو الفكر ويتراجع وَعْدُ الاجل لا نهائيــــاً . (ص٣٩٤ – ٣٩٥) . ومع ذلك لا تشكل البنيوية طريقة جديدة؛ إنها الضمير الواعي والقلق للعلم الحديث .

ان الخدمة الخاصة التي يقدمها العلوميون الشاكون هي إثارة مسائل جديدة بزعزعتهم أوضاع الرخاء . نأمل اذاً أن يوقظ Foucault مجيء « كانط جديد » يحملنا في استقامة ثانية من ركوده الدغمائي . ننتظر بشكل خاص من العمل الذي يتوخى الثورية ، الذي يقدمه لنا هذا المؤلف ، نقداً مخلصاً لعلوم الانسان وإيضاحات كافية للمفهوم الجديد للعلومية ، وتبرير التصور المحدد الذي يعطيه للبنيوية . بهذه النقاط الثلاثة نبقى على جوعنا لأننا لن نجد تحت هذه القدرة الرائعة على التقديم سوى عدة تأكيدات او إسقاطات . وعلى القارىء أن يعني بإيجاد البراهين بتنفيذه التقريبات كما يستطيـع .

لا تشكل العلوم الإنسانية مثلاً « علوماً خاطئة» فحسب، بل إنها لا تشكل علوماً مطلقاً ، والشكل الظاهري ، الذي يحدد وضعيتها ويغرسها في العلومية الحديثة ، يضعها في نفس الوقت خارج التحديد الذي يجعلها علوماً . وإذا سألنا عندئذ لماذا سميت بهذا الاسم ، يكتفى بالتذكير بأنها تنتمي إلى التحديد الأثري لتجذرها وبأنها تدعو وتستقبل الانتقال من نماذج مستعارة إلى علوم .

إذا طالبنا الآن ببراهين هذه التأكيدات غير المتوقعة لن نجد إلا البراهــين التالية :

١ – الشكل الظاهري الذي يحدد وضعيتها هو ثلاثي السطوح trièdre الذي اخترعه فوكو ، أما أبعاده الثلاثة فهي :

أ – العلوم الرياضية والفيزيائية :

ب – البيولوجيا والإقتصاد والعلوم اللغوية التي لا تشكل علوماً إنسانية .

ج – التفكير الفلسفي .

٢ – بما ان العلوم الانسانية لا تدخل في الفقرات أ،ب ، ج لا يمكن لهذه إذاً أن تكون علوماً (هذا ما أردنا برهانه) .

٣ – أما إذا أردنا أن نعلم لماذا تعتبر كذلك، فإن«التحديد الأثري لجذريتها» يفسر هذا الاعتبار بسهولة، لأن تحديدات فوكو الأثرية » تعود إلى الحديث بعد ذلك عما جرى ، وكأن ذلك كان يمكن أن يستنتج أولياً من معرفة علوميتها ، لأن التاريخ يبرهن أن كل ما هو مفكر به سيبقى يفكر به بواسطة فكرة لم تخلق بعد » .

في الواقع يسهّل نقد فوكو للعلوم الانسانية المهمة بعض الشيء ، بإعطاء هذه العلوم تحديداً محدداً لا يقبله أي من ممثليها . مثالاً على ذلك لا يشكل علم اللغة علماً انسانياً يتعلق فقط بهذا التعيين « الطريقة التي يستعملها الأفراد أو المجموعات لتمثيل الكلام... الخ)» . لقد نشأ علم النفس العلمي من القواعد الجديدة التي فرضها المجتمع الصناعي على الأفراد في غضون القرن التاسع عشر (كنا نحب أن نعرف ما هي هذه القواعد) وجذوره البيولوجية قد قطعت بإصرار . وهكذا لا يبقى من علم النفس هذا إلا تحليل للتصورات الفردية التي يستطيع أن يكتفي بها مطلق عالم نفسي، وبالطبع فإن العقل الباطن الفرويدي الذي يقدره فوكو بقدر ، يعلن نهاية الانسان بمعنى تفكك عقله الواعي كأداة دراسة متميزة تعسفياً . ينسى فوكو أن الحياة المعرفية بكاملها متعلقة ببنيات غير واعية أيضاً، ولكن عملها يربط المعرفة بالحياة في كليتها . إن ذلك كله يفقد أهميته

إذا كان هذا النقد المتميز هو ثمن لإكتشاف ؛ من أول وهلة يبدو مفهوم العلومية جديداً ويبدو حاملاً نوعاً من البنيوية العلومية وهذا مرحب به . ولا تشكل العلوميات épistémè بمجوعة فئات أولية بالمعنى الكانطي للكلمة لأنه ، بعكس الأخريات أو بعكس نظرة « ليفي شتراوس الإنسانية » التي تفرض نفسها كضرورة بشكل دائم ، تتلاحق الأولى في مجرى التاريخ وحتى بطريقة غير متوقعة .

كما ان العلوميات لا تشكل مجموعات من العلاقات الظاهرية التي تتأتى من عادات فكرية بسيطة أو من طرق ضاغطة يمكن أن تعمم في وقت ما من تاريخ العلوم . ولكن هذه العلوميات تشكل « أوليات تاريخية » ، الشروط السابقة للمعرفة ، كالأشكال الألوهية ، ولكن لا تبقى إلا مُدّة محدودة في التاريخ، تاركةً مكانها لغيرها عندما تفقد حظها . من الصعب عندما نقرأ تحليلات فوكو عن العلوميات التي يميزها تدريجياً ، أن لا نفكر « بالنماذج » paradigmes التي وصفها Th. S - Kuhn في مؤلفه الشهير عن الثورات العلمية[1] . للوهلة الأولى تبدو محاولة فوكو أكثر عمقاً، لأنها ذات طموح بنيوي ، ولأنها إذا نجحت فسوف تؤدي إلى اكتشاف بنيات علومية خالصة تربط بينها المبادىء الأساسية للعلم في حقبة معينة ، بينما يقتصر كوهن على وصفها وعلى التحليل التاريخي للأزمات التي أحدثت التغييرات . ولكن من أجل تحقيق مشروع فوكو ، كان يتوجب وجود أسلوب عوضاً عن التساؤل بأية شروط مسبقة لنا الحق أن نعتبر أن علومية تعمل بالمعنى المحدد، وحسب أية معايير يمكننا تخطي هذه المجموعة أو تلك من العلوميات المختلفة التي يمكن لأي كان أن يبنيها حسب الطرق المتنوعة لتفسير تاريخ العلوم . وثق فوكو بحدسه واستبدل بالارتجال التفكري كل منهجية نظامية .

---

(١) The Structure of scientific revolutions . University of Chicago 1962.

هناك خطران كانا محتومين :

أ – الاعتباطية في الميزات التي أطلقت على العلومية . أتت بعض الميزات في مكان ميزات أخرى ممكنة وألقيت بعضها بالرغم من أهميتها .

ب – التغاير في بعض الخواص المعتبرة متضامنة ، ولكن المنتمية لمستويات مختلفة من الفكر مع أنها تاريخياً معاصرة .

فيما يتعلق بأولى هذه العقبات، فإن ثلاثي السطوح، الذي تكلمنا عنه والذي يمثل العلومية المعاصرة إعتباطي من جميع وجهات النظر . قبل كل شيء يعطي فوكو نفسه الحق كما رأينا بأن ينطلق من العلوم الإنسانية على طريقته ، طارحاً علم اللغة والاقتصاد عندما تتعلق ليس بالأنسان ، ولكن بالفرد او بالمجموعات الضيقة ، بينما يهم علم النفس وعلم الاجتماع داخل ثلاثي السطوح دون أن يبلغا مركزاً ثابتاً . نرى اذاً ان هذه العلومية تخص فوكو نفسه ولا تخص التيارات العلمية التي يعود فيصيغها على طريقته الخاصة . من ناحية أخرى، فإن ثلاثيه هو ثلاثي سكوني،بينما نجد أن الميزة الاساسية للعلوم المعاصرة هي مجموعة التفاعلات التي تسعى لإعطاء النظام شكلاً دائرياً مع تداخلات متعددة:دينامية حرارية ، وتقنية الاعلام . علم النفس x الاتولوجيا x علم النفس اللغوي x القواعد المولدة، المنطق x التكوين النفسي ... الخ . وأخيراً يُدرج التفكير الفلسفي كبُعد مستقل ، بينما تسعى العلومية يوماً بعد يوم لأن تكون صميم كل واحد من هذه العلوم ، ويتعلق مركزها نفسه أكثر فأكثر بدائرة هذه العلوم نفسها وبالعلاقات الإنضباطية المشتركة التي تتغير بدون انقطاع،(ولكن على ماذا ينطوي التأكيد الذي يعود غالباً عن الميزة) « التجريبية السامية » لهذا « الازدواج الغريب » الذي يمثله الانسان .

أما فيما يتعلق بالخطأ الثاني لعلوميات فوكو ، أي التغاير الباطني،يبدو ذلك

واضحاً جداً في اللائحة من الصفحة ٨٦ ، حيث تُرجع علوميات القرنين السابع والثامن عشر الى النسق الخطي والى اشجار الصنافة arbres taxonomiques . وبالفعل يتعلق علم قوانين التصنيف ببنية بسيطة تنتمي إلى التجمع المنطقي (راجع مقطع ١٢) . ولكن بينما ظلّ الفكر البيولوجي على هذا المستوى ، توصل الفكر الرياضي ، منذ القرن ١٧ ، الى التحليل التفاضلي analyse infinitésimale والى نماذج تفاعل (ليست خطية في شيء) كمبدأ نيوتن الثالث (التساوي بين الفعل ورد الفعل) : أن ندعم العامية بحجة القول بأن المقصود هو نفس العلومية لأن هناك تزامناً . هـــذا يجعلنا ضحية للتاريخ بالمعنى الضيق ، بينما يدّعي فوكو التخلص من ذلك ، بواسطة علمه الثقافي في « الأثريات » . نكون عندئذ قد تخلينا عن المستويات ، في حين اننا نوجد هنا بكل تأكيد بين مستويين مختلفين.

هذه المسألة الكلية للمستويات ، تغيب كلياً من أبحاث فوكو لأنها تتنافى مع علوميته الشخصية « والأثرية » . ويصبح سعر هذا التنافي باهظاً للغاية ، وتتابع العلوميات غير مفهوم أبداً ، ويبدو أن مبدعها يظهر بعض الارتياح . فبالفعل لا تستطيع العلوميات المتتالية أن تستنتج الأولى من الثانية لا شكلياً ولا ديالكتيكياً حتى ولا تنتهج الواحدة بعلاقاتها مع الأخرى بأي ارتباط كان وراثيا أم تاريخياً . وبتعبير آخر فإن الكلمة الأخيرة « لعلم آثار » العقل هي ان العقل يتحول من دون سبب ، وتظهر بنياته وتختفي بتغيرات فجائية او بروزات آنية حسب الطريقة التي كان يستدل بها البيولوجيون قبل البنيوية الإحيائية الآلية المعاصرة . لا نبالغ إذاً إذا نعتنا بنيوية فوكو بالبنيوية الخالية من البنيات . هذه البنيوية تأخذ من البنيوية السكونية جميع مظاهرها السلبية : عدم تقييم التاريخ والتكوين ، نفي الموضوع نفسه لأن الانسان سائر إلى الزوال . أما فيما يتعلق بالمظاهر الايجابية فلا تشكل بنياته إلا تراسيم تصورية وليس مجموعات من التحويلات تحافظ على نفسها بضبطها الذاتي . النقطة الثابتة

الوحيدة في هذه اللاعقلانية الأخيرة عند فوكو هي الرجوع إلى اللغة المصممة على أنها تسيطر على الانسان لأنها خارجة عن الأفراد: ولكن حتى « كائن اللغة » être du langage يبقى طوعياً يشكل بالنسبة إليه ، نوعاً من الغموض الذي يحلو له فقط ان يشير إلى « إصراره المُعَمَّى » .

ولكن عمل فوكو لا يخلو من قيمة يتعذر استبدالها لحدة ذكائه الهدام : يبين عمل فوكو بالتأكيد استحالة الوصول إلى بنيوية متماسكة إذا عزلنا هذه البنيوية عن البنائية[1] .

---

(١) في مقابلة في دار الاذاعة الفرنسية نقلتها مجلة « la Quinzaine littéraire » عدد ١٩٦٨/٤٦ يعطي فوكو لابحاثه تأويلاً جديداً يبعده تقريباً عن أحاسيس القارىء غير المنحاز. ويبدو من المفيد الإشارة الى أن هذا التفسير الجديد لا يستطيع إلا ان يبهج المراقبين بشوق، تتمة أعماله . اذا استوعبنا جيداً ، فإن الانسان السائر الى الزوال لم يعد الانسان الذي تصبو اليه الدراسات الموضوعية ولكنه انسان ينتمي لإحدى «الإنسانات الفلسفية » التي لم تعد رائجة. أضف الى ذلك ان البحث العلومي أصبح داخلاً في مختلف العلوم بدل أن يتكىء على « بيولوجيا من أجل الفلاسفة » ... الخ وهكذا اخيراً، في هذا النوع من الجماعية في العمل النظري ، تكتمل فلسفة لم تجد بعد مفكرها الوحيد وبحثها الإفرادي . في هذه الحال تتلطف مجموعة الاتهامات التي قدمها فوكو : مثالا على ذلك « اننا لا نقتل التاريخ بل نقتل التاريخ الخاص بالفلاسفة ، هذا التاريخ نعم أريد أن أقتله ». نأمل اذاً من فوكو، بعد أن عاد فاكتشف انساناً مختلفاً عن انسان الفلاسفة (او محبذي علم النفس الفلسفي) ان يعيد اليه بنياته وأن يجد حتى في البنيوية الموضوعية «أوائل بحثه الافرادي»، بدل أن يرى في البنيويين مجموعة متنوعة من المؤلفين صنّف فيها رغما عن إرادته « فئة توجد من أجل الآخرين ، من أجل الذين لايكونونه » .

خاتمـــة

بتلخيصنا القضايا التي حاول هذا المؤلف الصغير أن يبرزها يجب أن نلاحظ اولاً أن عدداً كبيراً من تطبيقات هذه الطريقة هو حديث العهد . والبنيوية نفسهـا تملك تراثاً طويلاً في تاريخ الفكر العلمي ، ولو أن تكوينها حديث نسبياً بالنسبة الى تاريخ الربط بين الاستنتاج والاختبار . إذا قدر لنا ان ننتظر هذه المدة لكي نكتشف إمكانية الربط هذه ، فذلك عائد الى أن الميل الطبيعي للفكر هو أن يتبع طريقه من السهل الى المركب وأن يجهل بالتالي الارتباطات وأنظمة المجموع قبل أن تفرض صعوبات التحليل نفسها للتعرف عليها . ومن ثم لأن البنيات لا تظهر كبنيات ولأنها تضع نفسها على مستويات . لأنه من الضروري أن نجـــد أشكال الأشكال أو أن نجرد الأنظمة على القوة س ، وذلـــك يتطلب مجهوداً خاصاً من التجريد المنعكس . ولكن اذا كان تاريخ البنيوية العلمية طويل بعض الشيء ، فالدرس الذي يجب ان نستخلصه من هذا التاريخ هو ان البنيوية لا يمكن أن تشكل موضوعاً لعقيدة او لفلسفة وإلا لأمكن تجاوزها بسرعة ، بل تشكل بالضرورة طريقة مع كل ما تنطوي عليه هذه اللفظة من التقنية ومن الالتزامات ، والشرف الفكري ، ومن التطور في التقريبات المتتالية . لهـذا مهما كانت نوعية عقلية الانفتاح غير المجدد على المسائل الجديدة التي يجب على العلوم أن تحافظ عليها ، لا يمكننا إلا أن نكون قلقين في أن نرى الموضة تستولي على نموذج معين وتعطينا عنه نسخات فقيرة ومشوهة . يلزمنا إذاً بعض التراجـــع لكي نسمح للبنيوية الحقيقية أي الموضوعية بأن تحكم على كل ما نكون قد ذكرناه وفعلناه بإسمها . بعد هذا التذكير نجد أن النتيجة الاساسية التي نستخلصها من بحوثنـا المتتالية هي أن دراسة البنيات لا يمكن أن تكون حصرية ولا تلغي ، من

جراء ذلك ، أي من الابعاد الأخرى للبحث الذي يتعلق بعلوم الانسان وعلوم الحياة بشكل عام . وبالعكس تسعى هذه الدراسة الى توحيد هـــذه الابعاد ، وبالطريقة التي تتم بها جميع التوحيدات في الفكر العلمي : على نمط التبادلية والتفاعلات . في كل مكان حيث نلاحظ بعض التشبيه في بعض الوضعيات البنيوية الخاصة ، بيّنت لنا الفصول السابقة أن النماذج التي استعملناها لتبرير هذه التحديدات او التصلبات كانت على وجه التحديد تسير في مرحلة التطور باتجاه معاكس للاتجاه الذي حددناه لها . بعدما استخلصنا من علم اللغة مختلف أنواع الايحاءات الخصبة ، ولكن الجانبية بعض الشيء ، جاءت التحولات غير المتوقعة عند شومسكي لتخفيف هذه الرؤى المحدّدة .

أما الثاني من استنتاجاتنا العامة فهو البحث عن البنيات. بعقليته نفسها، لا يمكن أن يوصل ذلك إلا إلى ترتيبات مشتركة الانضباط. والسبب البسيط في ذلك أننا اذا تكلمنا عن البنيات في ميدان مصطنع الحمر ، كميدان أي علم خاص ، نجد أننا ننقاد بسرعة حتى نصبح لا نعرف أين يحدد « الكائن » من البنية. لأن البنية حسب تحديدها لا تتطابق أبداً مع مجموعة العلاقات الظاهرية المحددة بمفردها في العلم الذي عيّناه . مثالاً على ذلك يحدد ليفي شتراوس بنياته في نظام يتألف من بنيات التصور التصورية schèmes conceptuels وتقع على نصف الطريق بين البنيات التحتية ، والممارسات أو الإيديولوجيات الموضوعية ، وذلك لأن علم السلالة هو علم نفس قبل كل شيء !

وليڤي شتراوس محق في هذا، لأن الدراسة النفسية الوراثية للذكاء تبين أيضاً أن وعي الذات الفردية لا يحتوي قطعاً الإواليات التي منها يستنتج نشاطه ، وينطوي التصرف بالعكس وجود « بنيات » تعرض ذكاءها بمفردها : زد على ذلك أن هذه البنيات هي نفسها التي تنتمي إلى الفريق او إلى الشبكة أو إلى التكتل ... الخ. ولكن إذا سُئلنا أين نضع هذه البنيات ، عندما نغير مواضع كلمات شتراوس ونُجيب : نضعها في منتصف الطريق بين الجهاز العصبي

والتصرف الواعي نفسه ، « لأن علم النفس هو قبل كل شيء علماً بيولوجياً» ، وقد يتسنى لنا أن نواصل على هذه الطريقة ، لكن بما أن العلوم تشكل دائرة وليست تسلسلا خطياً ،فإننا نهبط من البيولوجيا الى الفيزياء؛هذا معناه أننا نعود بعد ذلك من البيولوجيا والفيزياء الى الرياضيـــات ، نعود بالنهاية ، لنقل الى الانسان حتى لا نقع في عقدة التقرير بين جسمه وروحه . إذا تابعنا استنتاجاتنا نجد بالفعل أن واحداً من هذه الاستنتاجات يفرض نفسه بنفس الدرجـــة من التأكيد التي يفرضها البحث المقارن : هذا الاستنتاج هو أن البنيات لم تقتـــل الانسان ولم تقتل نشاطات الذات . بالطبع يجب ان ننسق المفاهيم فالمفارقات ، التي تنجم عما نسميه « ذات »، قد تراكمت من جرّاء بعض التقاليد الفلسفية .

أولاً : يجب أن نفرق بين الذات الفردية التي لا تهم دراستنا والذات العلومية او النواة المعرفية المشتركة بين كل الذوات الموجودة في نفس المستوى .

ثانياً : يجب ان نقابل بين مـــا تستطيع أن تفعله الذات ضمن نشاطاتهـــا الفكرية التي تعرف نتائجها وليس إواليتها ، وبين الوعي الجزئي الذي غالباً ما يكون مشوّها .

ولكن أذا فصلنا الذات هكذا عن « الأنا »و « التجربة المُماشة » ، تبقى عملياتها أي ما تستخلصه بالتجريد المنعكس من التنسيقات العامة لأفعـــاله . والحالة أن هذه العمليات هي التي تشكل بالتحديد العناصر المكونة للبنيات التي يستعملها . إذا دعمنا عندئذ الفكرة القائلة بأن الذات قد اختفت ليحل المألوف والعام محلها ، نكون قد نسينا أنـــه على مستوى المعارف (كالقيم الاخلاقية او الجمالية) يفترض نشاط الذات لا مركزية مستمرة تحررها من انانيتها الفكرية الطوعية الفائدة ، وذلك ليس بالتحديد لصالح شمولية خالصة وخارجة عنها ، ولكن بسياق غير منقطع من تنسيقات ووضع ضمن تبادلات : والحالة أن هذا السياق هو الذي يولد البنيات في عملية بنائها أو اعادة بنائها المستمرتين. وبكلمة واحدة فإن الذات موجودة لأن « كائن » البنيات هو بحد ذاته بَنْيَنَتُها .

والذي يعطينا التبرير لهذا الاثبـات هو الإستنتاج التـالي المستخلص من المقارنة بين ميادين مختلفة: لا يوجد بنية من غير بناء مجرد او بناء وراثي ولكن كما رأينا فإن هذين النوعين من البناءات لا يبعدان عن بعضها بقدر مـا تتصور ذلك عادة . منذ بدأنا مع غودل نميز بين البنيات القوية تقريباً والضعيفة داخل النظريات المنطقية والرياضية ، اعتبرنا ان البنيات القوية لا يمكن اعدادها إلا بعد اعداد البنيات البسيطة (الاضعف) ، لكن لكونهـا ضرورية لإتمامها، يصبح نظام البنيات المجردة متضامناً مـع بناء المجموع لا ينتهي أبداً ويتعلق بحدود التعقيد .

أي أنه بتحديدنا، ان اي محتوى يشكل بحد ذاته شكلاً لمحتوى أدنى وأن شكلا يمثل دائماً محتوى للأشكال العليا. في هذه الحال يصبح البناء المجرد المنعكس المُقَعَّد للتكون ، لأن التكون يتبع هو الآخر طريق التجريـد المنعكس ، ولكنه يبتدىء من مستويات أقل ارتفاعاً .

وبالتأكيد في الميادين حيث تجهل المعطيات الوراثية وإذا صح القول حيث تضيع كما في علم الأخلاق ، يبدو طبيعيا أن نظهر بمظهر لائق أمام لعبة رديئة وأن نتدبر أمرنا لاعتبارنا التكون كشيء عديم الجدوى . ولكن في الميادين حيث يفرض التكون نفسه على الملاحظة اليومية ، كما في علم نفس الذكاء ، نلاحظ في الواقع أنه يوجد بين التكون والبنيات ترابط ضروري، ولا يشكل التكون أبداً إلا طريق المروز من بنية الى أخرى، ولكن صفة هذا المروز الاساسية هي أنه مكون ويقود من الاضعف الى الاقوى . كما ان البنية لا تشكل إلا مجموعة تحويلات، ولكن جذور هذه التحويلات هي جذور عملية وتتعلق بتكون سابق للأدوات المناسبة .

ولكن مشكلة التكون هي اكثر من مجرد سؤال في علم النفس : انها معنى مفهوم البنية ذاته الذي تتهمه . والانتقاء العلومي الاساسي يعتبر انتقاءاً لسبق إنتقاءاً لبنائية .

وبالطبع يبدو جذّاباً بالنسبة للرياضي أن يعتقد«بالمثل »، وأن يفكر أنه قبل اكتشاف الأعداد السالبة وقبل اكتشاف استخلاص الجذور للأعداد التخيلية $\sqrt{-1}$ ، ان هذه الاكتشافات كانت موجودة منذ الأزل في الجنّة . ولكن منذ قانون غودل، توقف الله نفسه عن جموده وأخذ يبني من دون انقطاع أنظمة تزداد قوة مما يجعله حياً اكثر .

والحال أننا اذا مررنا من الرياضيات الى البنيات الواقعية او « الطبيعية » ، تزداد عندئذ المشكلة حدة : ففطرية العقل عند شومسكي او استمرارية الفكر الانساني عند ليفي شتراوس لا ترضيان الروح إلا بشرط إهمال البيولوجيا . اما فيما يتعلق بالبنيات العضوية فيمكننا أن نرى فيها بدورها ، إما نتائج البناء المتطور ، وإما تتابع ترتيب كانت عناصره مسجلة في كل حين في الحوامض النواتية الأصلية .

وبالخلاصة فإن المشكلة تعاود طرح نفسها على جميع المستويات . أما في الميادين المحدودة حيث وضعنا انفسنا فيكفينا ، لكي نستنتج ، أن نلاحظ بأن الأبحاث حول البناء الوراثي موجودة ، وأنها كثفت ولم تضعف قط من جراء الرؤى البنيوية ، وبالتالي ، أن تأليفاً يفرض نفسه كما نرى ذلك في علم اللغة وسيكولوجية الذكاء .

تبقى النفعية اذا كان موضوع المعرفة لم يقصى جانباً من قبل البنيوية ، واذا كانت بنياته لا تنفصل عن التكون ، فمن البديهي أنّ تصور الوظيفة يفقد شيئاً من قيمته ويبقى منطوياً في الانتظام الذاتي الذي تنتهجه البنيات .

ولكن تتعزز هنا أيضاً حجج الواقع بواسطة الأسباب الشكلية أو الحقوقية . ويرجع نفي العمل بالفعل في ميدان البنيات الطبيعية الى افتراض وجود كيان اذا كان ذلك يتعلق بالموضوع نفسه أو بالمجتمع او بالحياة .

فهرس

الصفحة

منشورات عويدات ١٨٩ / ١٢ / ١٩٧١

Jean PIAGET

LE STRUCTURALISME

Texte traduit en arabe

par

Aref MNEIMNE & . Béchir AUBERY

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Paris

زدني علماً

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth – Paris